

آلام قيرتير

المركز العالمية للجميع

يوهان جوته



مبنى مكتبة الإسكندرية

آلام قمره

آلام قيرتير

يوهان جوته

ترجمة
د. فؤاد فيريد

منشورات

المكتبة الحديثة - بيروت

دار الشرف العربي - بيروت

الكتاب الاول

ما أسعدني بالابتعاد ! الا ما أعجب قلب الانسان إيتها الصديقة العزيرة ! فهانذا افارقك - انت التي لم اكن أطيق فراقك لانني احبك وأعزك أشد الاعزاز - ومع هذا اشعر لفراقك بالسعادة ! واني لاعلم انك ستصفحين عني لا محالة الا يحبك القدر احابيل الهوى لا لشيء الا لتعذيب امثالي ؟ اي ليونورا المسكينة ! ومع هذا فاللوم لا ينصب على كاهلي . افهل كان الذنب ذنبي ان هواي تولد في قلبها الرقيق في الوقت الذي كانت فيه اختها تسري عني بكل ظرف ؟ ولكن هل معنى هذا انني اخلو من الملام كل الخلو ؟ او لم اشجع عواطفها نحوي ؟ او لم تفتنني بما أبدته طبيعتها الصادقة نحوي ؟ ولكن هل يحق للمرء ان يتهم نفسه ؟ أعدك يا صديقتي العزيرة ان اصلح من شأني ، واستمتع بالحاضر ، وأطسوي صفحة الماضي . ولا شك انك على صواب يا خير صديق اذ تقولين انه لخير للبشر لو كفوا عن تقليب ذكريات الاحزان الغائرة بخيالهم المتقد ، بدلا من تحمل حاضره بصر وطمأنينة ، ولكن الله وحده يعلم لماذا جبل الناس على هذا .

وارجوك ان تخبري والدتي اني سادبر مسالتها الخاصة على احكم وجه استطيعه ، وسأبلغها النتيجة في اقرب وقت ممكن . وقد زرت عمتي ووجدتها ليست على ما يرميها به اصدقائنا من الشكاسة ، فهي امرأة

مرحة ، ذات حيوية ، وهي اطيب الناس قلبا . وقد ذكرت لها ما أضرت به والدتي في ذلك النصيب من ميراثها الذي حيل بينها وبينه ، فأدلت لي بالدوافع والاسباب التي أملت عليها تصرفاتها ، وبالشروط التي تقبل على اساسها التسليم لوالدتي بحقها كله ، بل انها مستعدة ان تصنع لها عندئذ اكثر مما طلبناه منها . ولا استطيع ان اكتب الان المزيد في هذا الشأن . ويكفي ان نقول لوالدتي ان كل شيء سيمضي على ما يرام ، وقد لاحظت انها العزيزة في هذه المناسبة ايضا ان سوء الفهم والاهمال تنجم عنهما من المساوىء والاضرار اكثر مما ينجم عادة عن سوء النية والرغبة في الشر والالتواء ...

وفيما عدا هذا اجدني بخير حال هنا . فالعزلة في هذا الفردوس الارضي بلسم لروحي ، والربيع البازغ يشرح صدري المكدود بوعوده السخية . فكل شجرة ، وكل شجيرة ، حافلة بالازهار ، حتى ان المرء ليمنى لو تحول الى فراشة . كي يحوم ويرف على هذا البحر المنرامي من العبير . ويجد ملء كيانه فيه .

والبلدة نفسها غير مستحبة ، ولكن كل ما حولها من المناظر الطبيعية جميل خلاب . وهذا ما حدا بالمرحوم الكونت م . ان يفرس روضة على منحدر احد التلال التي تنقطع هنا في تباين ساحر ، وتتألف من هذا التقاطع اجمل الوهاد والوديان . وهذه الحديقة غاية في البساطة ، ومن السهل ان تدركي . منذ نظاها قدمالك ، انها لا تدين بتخطيطها لبساني عالم بالتخطيط . بل لرجل احب ان يسلم قياده ها هنا لافراح قلبه الحساس . ولقد ذرفت الدمع مدرارا على ذكرى صاحبها الراحل بين ما تبقى من البست الصيفي الذي كان قد ابتناه هناك ، وكان ملاذه الاثير لديه ، وقد صار الان ملاذي . وعن قريب سأغدو مالك هذه الروضة ، وقد لازمني البستاني في الايام القليلة الاخيرة ، ولن يكون الخاسر بهذا التعلق .

١٠ مايو

لقد استولت على نفسي بأسرها طمانينة رائعة ، على نحو ما يحدث لي في بواكير ايام الربيع التي استمتع بها من أعماق فؤادي ، فانا هنا وحدي شاعرا بكل سحر الوجود في هذه البقعة التي جعلت كي تسعد بها ارواح مثل روحي ، واني لسعيد جدا اينها الصديقة العزيزة ، ومستغرق كل الاستغراق في الاحساس بهذه المعيشة الهادئة ، حتى انني اهملت

ملكاتي ومواهي ، فلا شك اني عاجز عن رسم اي شيء - مهما كان
يسيرا - في غمرة اللحظة الراهنة ، ومع هذا اشعر انني لم اكن فنانا
اقدر ولا اعظم مما انا الان ! فعندما ارى البخار يحسف بي في الوادي
الجميل ، وقد غمرت اشعة الشمس اعالي الاشجار ، عاجزة عن اختراق
اوراقها وغصونها المتتفة ، اللهم الا شعاعات يسيرة تتسلل الى قدس
اقداسي ، انطرح ارضا بين الاعشاب الطويلة على حافة الجدول الرقراق ،
وتتكشف لي عوالم لا حصر لها من النباتات التي تنشق من الارض التي
افترشها جسمي . ومن الهوام الصغيرة التي تمارس حياتها بين الجذور
في جد وداب وخفاء ، وعندئذ احس انني في حضرة العلي القدير الذي
صاغنا على صورته ، واشعر بأنفاس ذلك الحب الكوني الذي يمدنا بالقدر
على الحياة ، وقد اخذ يرف من حولي في سعادة ابدية . وحينما تألف
عيني الظلمة ويتسع مداها ايتها الصديقة ، ويخيل الي ان الارض سكنت
روحي واستولت عليها كأنها عشيقة محبوبة ، عندئذ اتمنى لو استطعت
ان اصف كل هذه التصورات ، واخط على صفحة الورق كل هذه المشاعر
التي تعيش وتتزاحم في داخلي ، لتكون هذه الصور مرآة روحي ، كما
صارت روحي مرآة الاله اللامتناهي ! ولكن ذلك يتجاوز قدرتي ايتها
الصديقة العزيزة ، ولذا تجديني ارح - بل اغرق - تحت عبء هذه
الرؤى وروعها !

١٢ مايو

لست ادري هل تتراد هذه البقعة ارواح مخادعة ، ام ان الاوهام
السماوية التي تعمر فؤادي هي التي تجعل كل شيء فيما حولي يبدو
وكانه الفردوس ، فامام البيت نافورة تشدني اليها كالمسحور فاذا ما
هبطت على المنحدر الهين وجدت قوسا ، القيت تحته بمقدار عشرين خطوة
جدولا في صفاء البلور يتدفق من نبع في صخرة كالرخام والجسدار
الضييق الذي يحرق بهذا القوس من اعلى ، والاشجار العالية التي
تحف بالجدول ، والرطوبة المنعشة التي تشع من المكان تترك كلها في
النفس انطبعا علويا ، ولا يمر يوم لا اقضي منه هناك ساعة من الزمان ،
فارى الصبايا يغدن من البلدة للحصول على شيء من مائه الصافي ، وهي
مشغلة بريئة للوقت ، وضرورية ايضا ، كانت فيما سلف من الزمان مهمة
تناط بينات الملوك والاقبال . وحينما اخلد للراحة هناك تراودني خواطر

الحياة الابوية القبلية القديمة واراها قد انبعثت قيما حولي ، فسأرى
اسلافنا الغابرين وكيف كانوا ينشئون صداقاتهم وأحلافهم الى جانب
النافورة ، وكيف كانت الارواح الخيرة تسهر على حراسة النوافير
والجداول ، وكل من جهل هذه المشاعر لن يذوق الراحة الكاملة بمعنى
الكلمة الى جوار نافورة بعد كد يوم مجهود من ايام الصيف .

١٣ مايو

تسأليني هل ترسلين الي كتباً ، وأنا اناشدك الله ان تعفيني من هذا
النير ! فلا حاجة بي الى ما يقودني ويثري ويث الحرارة في نفسي ، لان
فؤادي يختمر فيه من تلقاء نفسه ما فيه الكفاية لي ، وان اردت شيئاً
يهددني وجدته على اكمل وجه في هوميروس . وكثيراً ما اجدني بحاجة
الى ما يخفف عني ما في دمائي من وقدة الحمى المحرقة ، ولا أحسبك
شهدت لفؤادي مثيلاً في القلب ، ولكن اتراني بحاجة الى ان اعترف لك
بشيء من هذا يا صديقتي العزيزة ، التي كثيراً ما شهدت انتفاحي المفاجيء
من الحزن والاسى الى الفرح المسرف ، ومن الانسجام والناغم العذب الى
الاندفاع العنيف . اني لاعالج قلبي المسكين وكأنه طفل عليل ، والبي له
كل رغبة ، فلا تشيري الى شيء من هذا بعد الان ، فبذاك اناس غمرك
خليقون ان يعادوني عليه .

١٥ مايو

لقد اصبح عامة اهل هذا الموضع يعرفونني ، ويجبوني ، ولا سيما
الاطفال منهم ، فعندما خالطتهم في البداية ، واستفهمت - بلهجة ودية -
عن شئني احوالهم ، ظن فريق منهم اني اريد السخرية بهم . فانصرفوا
عني في سخط بالغ ، ولكني لم ادع ذلك يحزنني ، بل ازداد شعوري بما
لاحظته في كثير من الاحيان من قبل ، فالاشخاص ذوي الاقدار او المكانة
ينزعون الى التباعد عن عامة الناس ، وكأنهم يخشون ان يفقدوا اهميتهم
بمثل هذا الاتصال ، اما المتسكعون ومن يميلون الى الهذر فيتصنعون
النزول الى مستواهم لا لشيء الا لكي يجعلوا الفقراء يزدادون شعوراً بحدة
سلطتهم وقحتهم . واني لاعلم تمام العلم اننا لسنا سواسية ، وان
تكون ، بيد ان رأيي ان من يتحاشى العامة كي لا يفقد احترامه ملوم كما

يلام الجبان الذي يتوارى من عدوه لانه يخشى الهزيمة !
ومنذ ايام ذهبت الى النافورة ، فوجدت هناك فتاة خادمة شابة
كانت قد وضعت جرتها على الدرجة السفلى ، ووقفت تلتفت لترى هل
احدى رفيقاتها قادمة لتضع لها الجرة على راسها ، فجريت ونظرت اليها ،
وسألتها : «الاساعدك ايتها الصبية الحسنة ؟» فاحتقن وجهها من شدة
الخجل وهتفت : «أوه يا سيدي !» . فقلت لها : «لا كلفة في الامر !» ،
فسوت بيدها غطاء راسها ، وساعدتها فشكرتني ، ثم صعدت الدرج .

١٧ مايو

نجحت في عقد صلات تعارف شتى ، ولكنني لم اجد حتى الان
مجتمعا بمعنى الكلمة ، ولست ادري ما سر جاذبتي بالنسبة للناس ،
فالكثيرون منهم يستلطفونني ويربطون انفسهم بي ، وعندئذ اشعر بالاسف
عندما يكون الطريق الذي نسير فيه معا قصير المدى . وان سألتني عن
الناس هنا اجبتك انهم كسائر الناس في كل مكان . فالجنس البشري
شديد لالتشابه في رثابته . ومعظمهم يكدون معظم الوقت للحصول على
ما يقيتهم ، اما القسط اليسير من الحرية المتاح لهم فيزعجهم بحيث
يجتهدون بشتى الطرق كي يتخلصوا منه ، وهكذا قدر الانسان ! بيد
انهم قوم على ما يرام ، وحينما انسى نفسي واسهم في المسرات البريئة
التي لم تحظر بعد على الفلاحين فأمتع نفسي - مثلا - في طلاقة واخلاص
حقيقيين ، حول مائدة ، او ارتب رحلة او حفلا راقصا ، فان ذلك يجدي
مزاجي احسن الجدوى . وكل ما هناك انه ينبغي علي ان انسى ان ملكات
اخرى كثيرة هاجعة في أعماقي ، لا تجد لها نشاطا ، ولا بد لي ان اخفيها
عنهم ! آه ! لكم يؤثر في نفسي هذا الامر بصورة مخيفة . ولكن اساءة
الفهم قدر امثالنا !

وأسفاه ! لقد رحلت صديقة شبابي ! ليتني ما عرفتها قط ! واني
لاقول لنفسي : «انك لحالم اذ تنشد ما لن تجده في هذه الدنيا» . ولكنها
كانت لي ، وقد تملكيت يوما ذاك القلب ، وتلك النفس النبيلة ، وكنت
أبدو في حضرتها اكثر مما انا في الحقيقة ، لاني عندئذ كنت كامسـل
الكينونة . وهل كانت ملكة من ملكاتي تظل دون تمام نشاطها وأنا بين
يديها ؟ بل كانت المشاعر التي يجيش بها فؤادي تنطلق انطلاقا . او لم
تكن علاقتنا نسيجا أبديا من العواطف والبدية الحاضرة المتوقدة ، حتى

انها لنحتمل طابع العبقرية في بدواتها المسرفة ؟ ولكن وا اسفاه ! ان السنوات العلال التي كانت تكبرني بها قد عجلت بها الى القبر من قبلي . ولن انسى ابدا عقلها القوي ولا صبرها الطويل .

ومند بضعة ايام التفتيت بشاب اسمه ف. فيه صراحة وتفتح ، وشكله لطيف الى اقصى حد ، غادر الجامعة لتوه ، ولا يرى نفسه احكم الحكماء ، الا انه يعتقد انه يعرف اكثر مما يعرفه سائر الناس . وقد جد واجتهد ، كما لاحظت ذلك في مناسبات كثيرة ، وهو على الجملة يخترن معلومات كثيرة . ولما علم اني اكثر من الرسم ، واعرف اليونانية القديمة (وهما امران عجيبان في هذه البقعة) جاءني ليعرض امامي كل مخزونه من المعرفة والدرس ، وقال لي انه قرأ الجزء الاول من نظرية سولنزر ، وان لديه مخطوطا من تأليف هيني عن الآثار القديمة . وتركته يقول ما قال .

وتعرفت ايضا على شخص فاضل جدا ، وهو قاضي الناحية الصريح الطيب القلب . وقيل لي انه من الطف الامور ان يراه المرء وسط اطفاله ، وعددهم تسعة ! والناس يطرون كبرى بناته على الخصوص . وقد دعاني لزيارته ، وفي نيتي ان ازوره في اول فرصة . وهو مقيم في احد الكواخ الصيد الملكية ، وهو على مسيرة ساعة ونصف على الاقدام . وقد حصل على اذن بسكني ذلك الكوخ على اثر وفاة زوجته ، لانه من العسير المؤلم له ان يظل بعد فقدها قاطنا في المدينة ، بمبنى المحكمة .

وقد تعرفت ايضا على بعض الاشخاص من غربي الاطوار ، ووجدت عشرتهم غير مستحبة من وجوه كثيرة ، ووجدت اسلوبهم في اظهار الصداقة لا يطاق . والآن وداعا ، واحسب هذا الخطاب خليفا ان يسرك ، لصبغته التاريخية .

٢٢ مايو

يطاردني الاحساس بأن حياة المرء ان هي الا حلم . فعندما اتأمل الحدود الضيقة التي حبست بداخلها انشطتنا وملكاتنا ، وكيف تتبدد طاقاتنا في سبيل الحصول على الكفاف من الضروريات التي لا غاية من ورائها بعد كل شيء سوى اطالة حياتنا التعسة ، وان كل ما نحصل عليه من السرور بصدد جهودنا او ابحاثنا لا يفضي الا الى استسلام سلبي ، سنما نحن نسلي انفسنا بتزيين جدران سجننا بالاشكال البهيجة والمناظر الخلابة — اقول عندما اتأمل هذا كله — يا ولهم — ألوذ بالصمت ، وافحص وجودي،

فأجد ثمة عالما ، ولكنه على الأرجح عالم من الأخيلة والرغبات الغامضة ، وليس عالما من الوضوح والتميز وقوة الحياة ، وحينئذ يعوم كل شيء امام حواسي ، وأبتسم وأحلم ، وأنا أشق طريقي في الحياة .
وجميع الاساتذة والعلماء متفقون في الرأي على ان الاطفال لا يدركون علة رغباتهم ، ولكن الكبار ايضا يجوبون الارض كالاطفال ، غير عالمين من اين جاءوا ، ولا ايان يذهبون ، وقلما توجههم الدوافع الثابتة ، فهم كالاطفال الصغار يسرون وراء اغراء الحلوى ، وبرهيون العصا ، بيد انه ما من احد يعترف بهذا ، مع انه صواب فيما ارى .

واني لاعرف ماذا عسيت ان تقول ردا على هذا ، وأنا على استعداد للاقرار بأن أسعد الناس هم من يشبهون الصغار ، فيتسلون بالالاعيب ، وبالباس الدمى او تعريتها من ثيابها ، ويرقبون الصوان الذي تدخر فيه الأم الحلوى ، حتى اذا ظفروا بقطعة منها اكلوها بنهم وهتفوا : هل من مزيد !.. اولئك - يقينا - هم السعداء ، ولكن الآخرين ايضا مغبوطون ، اعني من يصفون على مشاغلهم الصغيرة الشأن ، بل وعلى اهوائهم احيانا ، باللقاب الطنانة ، وكأنها من جلائل الامور التي تستحق التمجيد !.. اما الانسان الذي يعرف كم هذا باطل كله ، ويلاحظ كيف يحول المواطن - الدعوب - في لذة - حديقته الصغيرة الى جنة ، وبأي صبر يتابع الفقير طريقه الشاق وهو يزرع تحت وقر ما ينوء به من أعباء وكيف يتوق الجميع على السواء الى مزيد من نور الشمس . اجل ، هذا المرء سعيد ايضا ، لانه بشر ، ويعيش في سلام مع نفسه لانه يبدع في سريره عالمه الخاص به . ومهما كان مجاله محدودا ، فحسبه انه يحتفظ في صدره بالشعور العذب بالحرية ، وانه يعلم ان بوسعه ان ينطلق من سجنه متى شاء .

٢٦ مايو

تعرف من قديم طريقي في الاستقرار بأي مكان ، وكيف اختار كوخا صغيرا في بقعة مستكنة ، فأخذ اليهما مهما كانت المضايقات . وهنا ايضا اكتشفت مكانا مريحا هادئا يتميز في نظري بسحر خاص . فعلى مسافة فرسخ من البلدة مكان اسمه «فالهايم» يقع على جانب تل ، واذا سرت في احد الدروب المتفرعة من القرية تكشف لك منظر الوادي كله . وتعيش ها هنا امرأة طيبة عجوز تدير خانا صغيرا وتبيع فيه النبيل ، والجة ، والقهوة ، وهي مرحة لطيفة برغم تقدمها في السن . واهم

مزايا هذه البقعة وجود شجرتي زيزفون ، تبسطان اغصانهما الهائلة فوق
المرج الصغير الواقع امام الكنيسة ، وتحيط به اكواخ الفلاحين واهسراء
غلالهم . وقلما وقع بصري على مكان في مثل هذه العزلة والسكينة .
وكثيرا ما جعلتهم ينقلون اليه مائدتي ومقعدي من داخل الخان ، وهناك
اشرب قهوتي ، وأطالع هوميروس . وقد ساقطني الصدفة الى ذلك
الموضع ذات عصر بديع ، فوجدته خاليا تماما ، لان الجميع كانوا في
الحقول ، اللهم الا صبي في نحو الرابعة من عمره ، كان جالسا على
الارض ، وقد وضع بين ركبتيه طفلا في نحو الشهر السادس من العمر ،
وجعل يضمه الى صدره بكلتا ذراعيه ، بحيث جعله كالجالس في كرسي
وتير ذي ذراعين ، وبرغم الحيوية التي كانت تنقد في عينيهِ السوداوين
ظل ساكنا في موضعه تمام السكينة فسحرنى هذا المنظر ، فجلست على
محراث كان قبائله ورسمت بكل جوار هذه الصورة الصغيرة للجنسان
الاخوي ، واضفت اليها سور النبات القريب ، وباب مخزن الفمخ ،
وبعض عجالات العربات المحطمة حسبا وجدتها ملقاة هناك . وفي مدى
ساعة وجدتني قد انجزت رسما صحيحا للغاية ، ومثرا للاهتمام . من
غير ان أضيف اليه شيئا من عندي اطلاقا ، الامر الذي دعاني لتخصيص كل
وقتي مستقبلا للطبيعة ، فهي وحدها المعين الذي لا ينضب ، والكفيل
بنكويْن اعظم اساتذة (الفن) . وقد يقال الكثير عن القواعد ، والكثير ايضا
عن قوانين المجتمع ، وصحيح ان الفنان الذي يدين بتكوينه لهذيين
المصدرين لن ينتج شيئا مفرط الرداءة او مقززا ، كما ان المرء الذي يراعي
قوانين اللياقة ويطيعها خليق الا يكون سمجا لا يطاق من جانب جيرانه ،
وجدير الا يكون غدا . ولكن مهما قلت واعدت في اهمية القواعد ، فهي
على كل حال تدمر الشعور الاصيل بالطبيعة ، وتدمر كذلك التعبير
الصادق عنها . ولا تقل لي : «ان هذا امعان في التشرد ، فالقواعد تكبح
الاغصان الفضولية وتشذبها فحسب» . وما الى ذلك . ولسوف اسوق
اليك في هذا الصدد مثلا ايها الصديق الكريم . فهذه الاشياء اشبه
بالحب . فالشاب الدافئ القلب يندو شديد الارتباط بفتاة ، ويقضي كل
ساعات يومه في صحبتها ، ويهدم في ذلك السبيل صحته ويبدد ثروته ،
كي يثبت لها انه يتعلق بها كل التعلق ، ثم يأتي رجل من رجال المجتمع
ذو مكانة واحترام ويقول له : «الحب شيء طبيعي ايها الشاب ، ولكنك
ينبغي ان تحب في نطاق محدود ، ففهم وقتك ، وخصص جانبا منه

للاشغال ، وامنح اوقات راحتك واسترخائك لمحبتك ، واحسب مقدار ثروتك ، وخصص جانباً من فائضها لتقديم الهدايا اليها ، لا في اوقات متقاربة ، بل بمناسبة عيد ميلادها ، وما الى ذلك من الاحايين» . فاذا اتبع الشاب هذا النصح غداً عضواً نافعا في المجتمع ، واني انصح كل امير ان يعينه في منصب ، ولكن سلام على حبه عندئذ ، وعلى عبقريته ان كان فناناً ! آه يا صديقي ! لماذا لا ينبجس فيض العبقرية الا نادراً جداً ، ونادراً جداً ما يتدفق جدولاً طامياً يفمر روحك المأخوذ ؟ ذلك انه على كلا جانبي هذا الجدول القدسي اقام أناس باردون محترمون مساكنهم ، ولذا يمكن ان تتأذى حدائق ازهارهم ويوتهم الصيفية بفيضان ذلك المجسرى المهيب ، ومن ثم حفروا الخنادق ، واقاموا المتاريس والسدود ، كي يصدوا ذلك الخطر الماحق .

٢٧ مايو

لقد استغرقتني النشوة واندفعت في التشبيهات ونسيت ان احدثك بما كان من امر الطفلين . وكنت قد انغمست في تأملاتي الفنية التي وصفتها بإيجاز في خطاب الامس ، وظللت جالسا على المحراث مقدار ساعتين من الزمان . وقبيل المساء اقبلت امرأة شابة وقد علقت بذراعها سلة تجري نحو الطفلين اللذين لم يكونا قد تحركا طليسة ذلك الوقت . وصاحت الشابة عن بعد : «يا لك من غلام طيب يا فيليب !» . وحينني، فرددت عليها تحيتها ونهضت فاقتربت منها ، وسألته اهي والدة الطفلين الجميلين ، قالت : نعم ، واعطت اكبرهما كسرة خبز . ثم تناولت الاصغر بين ذراعيها وقبلته بحنان الام وقالت : «لقد تركت طفلي في رعاية فيليب بينما ذهبت الى البلدة لابتاع شيئاً من خبز القمح ، وشيئاً من السكر ، وقدرا من الفخار» ورأيت هذه الاشياء في سلتها التي كان الفطاء قد سقط عنها ، واستطردت هي : «فاني بسبيل ان اصنع الليلة شيئاً من المرق لصغيري هانز (وهو اسم الطفل الاصغر) لان ابني الاكبر كسر لي قدري امس وهو يتصارع مع فيليب على ما تبقى من محتوياتها» . وسألته عن ابنها الاكبر هذا ، فلم يكذب يتسع لها الوقت لتقول لي انه يقود اوزنين الى الدار من المرعى ، حتى رايته قادماً يعدو ، واعطى فيليب عسلوجاً من الصفصاف . وتحدثت برهة قصيرة مع المرأة ، فعرفت انها ابنة معلم المدرسة ، وان زوجها مسافر الى سويسرا لتحصيل مبلغ من

المال تركه له احد ذوي قرياه . وقالت في صدد ذلك : «لقد ارادوا ان يفتشوه ، ولم يردوا على خطاباته ، فذهب الى هناك بنفسه . واتمنى الا يكون قد اصابه حادث ، لاني لم اُتلق رسالة منه منذ سفره» . وفارقت المرأة آسفا ، بعد ان اعطيت كل ولد من ابنائها «كرويتسزرا» ، وزدت الاصغر منهم كرويتسزرا اخر ، ليشتري شيئا من خبز القمح لحسائه عندما تذهب المرأة القادمة الى البلدة .

وأؤكد لك يا صديقي العزيز ان مرأى مثل هذه المخلوقة يهدىء نفسي المضطربة عندما تكون خاطري في عنفوان جيشانها ، فهي تتحرك في خلو بال داخل حدود دائرة وجودها ، وتنشد ما يسد حاجاتها يوما بيوم ، وعندما ترى الاوراق تتساقط لا يشير ذلك في نفسها شيئا سوى ان الشتاء على الابواب .

ولقد اُكثرت من الذهاب الى هناك بعد ذلك مرارا متوالية ، والفني الاطفال ، وأعطي كلا منهم قطعة من السكر عندما اشرب قهوتي ، ويشاركونني اللبن والخبز والزبد في المساء ، ويحظون بكرويتسزهم دائما يوم الاحد ، لان المرأة الطيبة لديها امر مني باعطائهم اياه اذا لم اذهب الى هناك بعد قداس المساء . وهم لفرط الفهم لي يروون لي كل شيء ، ويسلميني كثيرا ان اُرقب حالاتهم المزاجية ، وبساطة سلوكهم عندما يجتمع معهم نفر من اطفال القرية الاخرين . وقد تعبت كثيرا كي اهدىء من قلق الام التي كانت تخشى (كما تقول) «ان يضايقوا السيد» .

٣٠ مايو

ان ما ذكرته لك اخيرا عن الرسم يصدق ايضا على الشعر ، فانه من الضروري لنا ان نعرف فحسب ما هو الممتاز حقا ، ونحاول التعبير عنه . وهذا هو قصارى القول . وقد رأيت اليوم مشهدا لو روي بأسلوب ادبي لكان أجمل قصيدة رعوية . ولكن ما حاجتي الى الحديث عن الشعر والمشاهد والقصائد الرعوية ؟ اليس في وسعنا ان نبتهج بالطبيعة من غير ان نلتجئ الى الفن ؟

ولئن توقعنا شيئا رائعا بديعا من هذه المقدمة فأنت مخطيء ، فهي لا تنعلق الا بفلام فلاح اثار في نفسي اهتماما حارا ، وسأروي لك قصتي في سرد رديء كالعادة ، وستراني كالعادة مولعا بالمبالغة ، ولكنها «فالهيم» مرة أخرى - ودائما فالهيم - تأبى الا ان تمدني بهذه الظواهر المدهشة .

كانت جماعة قد جلست خارج البيت تحت شجرتي الزيزفون لشرب القهوة ، ولم تعجبني هذه الصحبة ، ولذا تأخرت عنهم قليلا متذمرا بعلّة او بأخرى ، وخرج فلاح من بيت مجاور وشرع يعمل في اصلاح المحراث الذي رسمته اخيرا ، وسرني مظهره ، فتحدثت اليه ، وسألته عن ظروفه ، وتعرفت به ، وسرعان ما ظفرت بثقته كعادتي مع أمثاله ، فقال انه في خدمة ارملة شابة تعتز بخدمته كثيرا . وأطنب في الحديث عن سيدته ، وأطراها ايما اطراء ، حتى ادركت انه غارق في حبها حبا يائسا ، وقال: «انها لم تعد شابة ، وكان زوجها السابق يسيء معاملتها ، لذا قررت الا تتزوج مرة اخرى» . ولكن لهجته دلّني على انها فتنته ايما فتنة ، وعلى انه يتمنى من كل قلبه لو اختارته لاختارته لذكرى سوء معاملة زوجها الراحل لها . وإراني بحاجة الى سرد الفاظه بحروفها كي اصف عمق تعلق هذا المسكين وصدق تولفه بها . والواقع ان ذلك يقتضي مواهب شاعر عظيم كي ينقل تعبير ملامحه ، وتناغم صوته واتقاد نظراته . وما من الفاظ يمكن ان تصور الحنان الفاض من كل حركة من حركاته ، وكل لمحة من لحاته . وعينا اجتهد في نقل هذا المشهد لك بما يوفيه قدره . ومست أوتار قلبي امارات ذعره خشية ان أسيء تصور موقفه بازاء مخدومته ، او يساورني الشك في نظافة سلوكها . ولا سبيل الى التعبير عن الإهلوب الساحر الذي وصف به قامتها وشكلها ، وكيف انها – وان تجاوزت نضرة الشباب – قد قيدته الى شخصها . واني لأدع هذا لخيالك . والحق انني لم أصادف في حياتي كلها ولم أتخيل قط امكان مثل هذا التوله والاعزاز ، مقترنين بكل هذا النقاء . فلا تلمني اذا قلت لك ان ذكرى هذه السداجة وهذا الصدق قد انطبعت انطبعا عميقا في أغوار نفسي ، وان صورة هذا الاخلاص والحنان تراودني حيثما كنت ، وان قلبي يتوهج في صدري لهذه الذكرى كأنما اتقدت فيه السنة اللهب .

وانا الان مشغول برؤياها في اقرب وقت . او لعل الاحجي الا اراها ، وان اكتفي برؤيتها من خلال عيني محبها ، فقد لا تبدو في عيني على نحو ما تتراءى الان لي ، فلماذا أدمر صورة حلوة .

١٦ يونيو

«لماذا لا اكتب اليك ؟» من حقل ان تعرف . وقد يعن لك ان توجه الي هذا السؤال . ولكن كان ينبغي ان تخمن انني بخير ، اي انسي

- باختصار - قد تعرفت الى شخص استطاع ان يستحوذ على قلبي . .
وقد حدث هذا ، لا ادري كيف . فمن العسير ان اقدم لك بيانا شافيا
عن الطريقة التي بها تعرفت الى الطف النساء وآنسهن . فانا امرؤ سعيد
قريب العين ، ولكني مؤرخ هزيل .

ملاك هي ! ولكن هذا القول هراء ! فكل امرئ يصف محبوبته هذا
الوصف ، ومع هذا اجد من المستحيل على ان اخبرك كم هي كاملة
المحاسن . او لماذا هي كاملة الى هذا الحد الكبير ، ولكن بحسبك ان اقول
انها اسرت جميع حواسي . ففيها من البساطة الشيء الكثير جدا ،
مقترنة بالكثير جدا من الفهم - وهي دمثة جدا ، بيد انها مع هذا ذات
همة وعزم ، فعملها ثابت الدعائم ، حياتها شديدة النشاط .

ولكن هذا انقول كله هراء قميء لا يرقى الى مستوى سمة واحدة من
سمات خلقها وخلقها . وفي فرصة اخرى - بل كلا . ليس في فرصة
اخرى ، وانما الان ، في هذه اللحظة وفورا ، سأخبرك بكل شيء عنها .
الان والا فلا . والحقيقة - بيني وبينك - انني اوشكت منذ بدأت هذا
الخطاب ان اضع القلم من يدي ، وأمر باسراج جوادي لانطلق به . مع
انني كنت قد آليت على نفسي الا امتطيه اليوم ، بيد اني لا اكف - بين
لحظة واخرى - عن الاندفاع الى النافذة لارى اين بلغت الشمس من
الارتفاع في قبة السماء .

لم استطع ان اكبح جماح نفسي ، ولم يكن لي من الذهاب اليها بد .
وقد نددت لنوبي بافلهم ، وسأكتب اليك وانا اتناول عشاءي . فما كان
ابهج روي برؤياها وسط اطفالها الاعزاء الحسان : ثمانية من الاخوة
والاخوات ؟

ولكني اذا امضيت في الحدث على هذا المنوال فلن يفيدك هذا حتى
نهاية خطابي شيئا اكثر مما كنت تعرفه في بدايته . فصبرا اذن ، وسأحاول
ان احمل نفسي على تزويدك بالتفصيلات .

لقد ذكرت لك منذ بضعة ايام انني كنت قد تعرفت بالسيد س . .
قاضي الناحية ، وانه دعاني للذهاب الى زيارته في معنكفه ، او على
الاصح في مملكته الصغيرة . بيد اني اهملت في تلبسة هذه الدعوة ،
ولعلني ما كنت لاذهب اطلاقا لولا ان الصدفة كشفت لي عن الكنز الذي
يكن مخبوءا في هذه البقعة المنزلة . ذلك ان بعض الشباب هنا اقترحوا
اقامة حفل راقص في الريف ، وقبلت الاشتراك فيه . واخترت لصحبتني

في تلك الامسية الى فتاة من ابناء جيرتي المباشرة فيها ملاحظة وظرف ، ولكنها عادية على كل حال ، واستقر الرأي على ان استأجر عربية وأمسر على «شارلوت» مع شريكتي وخالتها ، لأوصلهن الى الحفل الراقص . وقالت لي مرافقتي - ونحن في الطريق وسط البستان الى كوخ الصيد - انني سأتعرف على سيدة شابة فاتنة للغاية . وأردفت خالتها : «خذ حذرك حتى لا يفتن بها فؤادك !» فسالتها «ولم هذا التحذير؟» فقالت «لأنها مخطوبة بالفعل لرجل فاضل جدا ، سافر لنسوية احواله المالية بعد وفاة والده الذي ترك له ميراثا ضخما جدا» . ولم يثر هذا النبأ شيئا ذا بال في نفسي . وعندما وصلنا الى البوابة كانت الشمس قد مالَت للمغيب وراء قمم الجبال ، والجو ثقيل ، فتخوفت السيدتان من وشك هبوب العاصفة ، لان كتلا من السحاب الاسود كانت تتجمع فوق الاق ، فحاولت صرف القلق عنهما وادعيت اني من خبراء الاحوال الجوية، مع اني كنت لا اخلو شخصا من التوجس خشية ان تفسد العاصفة علينا متعتنا .

وترجلت من العربية . وأقبلت خادمة عند الباب ورجتنا ان ننتظر سيدتها برهة ، فاجتزت الغناء الى بيت حسن البناء ، وصعدت الدرج الامامي وفتحت الباب فرايت قبالي أفتن منظر رأيت طول حياتي ، فثمة ستة اطفال تتراوح أعمارهم بين احدى عشرة سنة وستين ، يتجاورون في البهو من حول سيدة متوسطة الطول ، ذات قامة بديعة ، ترتدي ثوبا ابيض بسيطا مزينا بشرائط وردية اللون . وكانت تحمل في يدها رغيفا من دقيق الجودار تقتطع منه للصغار من حولها ، وفق أعمارهم وشهيتهم . وكانت تقوم بهذه المهمة بأسلوب رشيق يفيض اعزازا ، وكل واحد من الصغار ينتظر دوره بيدين ممدودتين ، وأصواتهم تصخب من حولها بالشكر والابتهاج . وكان بعضهم يتعدون سراعا بعد الحصول على نصيبهم لينعموا بوجبة المساء ، في حين ذهب آخرون - وهم ارق حاشية - الى الغناء لرؤية الغرباء ومشاهدة العربة التي ستستقلها عزيزتهم شارلوت التي قالت :

- أرجو ان تغفر لي اني جشمتك مشقة الحضور الي ، وانسي استبقيت السيدتين في انتظار قدومي ، فان مشاغل اللبس وبعض الواجبات المنزلية قبل انصرافي قد انسنتني عشاء الاطفال ، وهم لا يحبون ان يتناولوه من يد احد سواي .

وتفوهت بعبارة مجاملة حيثما اتفق ، ولكن روحي كلها كانت مستغرقة

في منظرها ، وصوتها وطريقة كلامها وحركتها ، ولم اكد استرجع رباطة جأشي حتى اندفعت تجري الى حجرتها لاحضار قفازها ومروحتها ، وأخذ الصفار يرمقوني بنظرات مستفسرة عن بعد ، فاقتربت من اصفرهم ، وهو مخلوق صغير «الذيد» جدا ، فتراجع الى الوراء ، وقالت شارلوت التي عادت في هذه اللحظة :

— لويس ! صافح ابن عمك !

فصدع الصفير بالامر طواعية ، ولم اتمالك نفسي ان اقبله قبله بقلبة مدوية ، برغم قذارة وجهه . وقلت لشارلوت وأنا آخذ بيدها لتهدئ السلم :

— يا بنت العم ! أتراني حقا جدير بسعادة الانتماء الى قرابتك ؟

فقالت باسمه :

— ان لي عددا كبيرا من ابناء العم ، بحيث يحزنني الا تكون فسي عدادهم .

وعندما ودعت اخوتها طلبت من اختها النالية لها في العمر — واسمها «صوفي» ، وسنها حوالي احدى عشرة سنة — ان ترعى الاطفال ، وان تبلغ تحيتها لوالدها عندما يعود من نزهته على صهوة جواده . راوست الصفار ان يطيعوا شقيقتهم صوفي كطاعتهم لشخصها ، ووعدوا بعضهم بهذا ، بيد ان فتاة شقراء الشعر في نحو السادسة من عمرها بدا عليها عدم الاقتناع وقالت :

— ولكن صوفي ليست انت يا شارلوت . ونحن نحبك اكثر .

وتسلق اكبر غلامين من اخوتها العربية ، فسمحت شارلوت لهما — بناء على وساطتي — بأن يصحبانا بعض الطريق وسط الغابة ، بعد ان وعدا بالجلوس ساكنين ، والامساك بالعربة امساكا وثيقا .

وما كدنا نجلس ، وما كادت السيدات يبادلن تحيات المجاملة ، وأبدت كل منهن التعليقات المألوفة على زي الأخرى وزينتها ، وعلى الأشخاص الذين يتوقعن صحبتهم في تلك الأمسية ، حتى امرت شارلوت بوقوف العربية وجعلت شقيقتها ينزلان عنها ، فأصرا على تقبيل يديها مرة أخرى. ولثم أكبرهما يد اخته بكل رقة فتى في الخامسة عشرة ، أما الآخر فلثمها بمزيد من الخفة وبلا عناية ، وطلبت شارلوت اليهما مرة أخرى ان يلفسا اخوتها الصفار تحيتها ، ثم انطلقت بنا العربة .

وسألت الخالة شارلوت هل فرغت من الكتاب الذي ارسلته اليها

اخيرا فقلت شارلوت :

— كلا ! فانا لم احببه ، وفي وسعك ان تسترديه . وكذلك الكتاب الذي قبله لم يكن افضل منه كثيرا .

وادهشني — عندما سألت عن عنوان الكتاب — ان اعرف انه كتاب «...» والحق انني وجدت نفاذ بصيرة وقوة شخصية في كل ما تفوهت به ، وكل تعبير صدر منها وكأنه يشع نورا على ملامحها ويضفي عليها سحرا جديدا وشعاعا جديدا من العبقرية التي كانت تتكشف شيئا فشيئا كلما تبينت انني ازداد لها فهما . واردفت شارلوت تقول !

— عندما كنت أصغر سنا لم اكن احب شيئا قدر حبي للروايات العاطفية ، فلم يكن شيء يعدل سروري اذا ما تسنى لي في احدي العطلات ان استكن بهدوء في ركن من الاركان ، وانغمس بكل روحي في قلبي في افراح البطلة الوهمية واحزانها . ولست انكر ان ذلك لم يزل يفتنني الى الان الى حد ما ... ولكنني قلما اقرأ الان ، ولذا اؤثر كتباً توافق ذوقي تمام الموافقة . وانا احب حاليا اولئك المؤلفين الذين تصف مشاعرهم — اكثر ما تصف — حالا مثل حالي ووضعاً مثل وضعي في الحياة .. كما احب — اكثر من سواهم — اولئك الاصدقاء من حولي الذين تثير حكاياتهم اهتمامي ، بما فيها من أوجه الشبه مع حياتي الصميمة المألوفة ، وهي حياة ان لم تكن الفردوس بحذافيره ، فهي على الجملة مصدر سعادة لا توصف .

وحاولت ان اخص الانفعال الذي اثارته لدي هذه الكلمات ، ولكن ذهبت جهودي هباء ، لانها عندما عبرت بصدق شديد عن رأيها في «قس واكفيلد» وغير هذه القصة من الاعمال التي اغفل هنا ذكر اسمائها، لم اقدر على تمالك نفسي ، واطلقت للسان العنان فقلت لها رأيي بكل صراحة ، ولم اتذكر وجود السيدتين الاخريتين الا عندما وجهت شارلوت اليهما الخطاب ، فرايتهما جالستين وقد عقدت الدهشة لسانيهما ، ورمتني الخالة عدة مرات بنظرات مزاح لم ابال بها اطلاقاً .

وتحدثنا عن مباحج الرقص ، فقالت شارلوت :

— لئن كان حب الرقص خطأ ، فانا على استعداد للاعتراف بأنني اعلي متعته على سائر المتع ، فاذا ما اقلقني امر ما توجهت الى البيانو وعزفت مقطوعة مما كنت قد رقصت على انغامه قبل ذلك ، فينصرف عني ما اكابده فوراً .

وتستطيع — انت الذي تعرفني — ان تتخيل بأي اصرار حدثت في عينيها السوداوين الثريتي السواد وهي تدلي بهذه الملاحظات ، وكيف

حامت روعي حول شفيتها الدافنتين ، وخديها الناضرين المتوهجين ، وكيف همت وعزفت في المعاني البديعة التي عبرت عنها كلماتها ... وقد بلغ من حالي هذا انني لم اكد اسمع الفاظها الفعلية . وقصارى القول انني ترجلت من العربية أشبه بشخص في غيبوبة حلم ، وكنت غالباً عن العالم الغامض من حولي حتى اوشكت الا اسمع الموسيقى المنبعثة من قاعة الرقص المضيئة .

وقد بلغنا السيدان اندران و ن.ن. (ولن أجنم نفسي ذكر الاسماء) وهما رفيقا الخالة وشارلوت عند باب العربية ، وأخذ كل منهما شريكته ، وتبعتهما انا مع شريكتي .

وبدأنا برقصة المتبويت البطيئة الرزينة . وقدت فيها سيدة في اثر اخرى . وكانت اشدهن سماجة هن اللواتي يابن بالذات ان يحملن أنفسهن على ترك مشاركتي . وبدأت شارلوت مع شريكها رقصة ريفية انجليزية ، ولك ان تتصور مبلغ حبوري عندما حان لهما ان يرقصا معنا . وليتك ترى شارلوت وهي يرقص ، فهي ترقص بكل قلبها وروحها : فقامها كلها نناغم ورشاقة واناقة ، وكأنها لم تعد تعي شيئاً اخر ، ولا تخامرها في غير الرقص فكرة او خلجة ، ولا شك عندي في ان كل احساس لديها بما عدا الرقص يتلاشى في تلك اللحظة .

وكانت مرتبطة بأخر في الرقصة الريفية النالية ، لكنها وعدتني بالرقصة الثالثة ، وأكدت لي بكل صراحتها المحببة انها مفرمة جدا برقصة الفالس ، وقالت :

— لقد جرت العادة هنا ان يرقص الفالس شريكا الرقصة السابقة عليها . ولكن شريكي لا يتقن الفالس ، ولسوف يبهجه ان اجنبه هذه المشقة . وشريكتك غير مصرح لها بالفالس ، وهي ايضا لا تستطيعه ، اما انت ففد لاحظت اثناء الرقصة الريفية انك تحسن الفالس . فاذا اردت ان تراقصني الفالس ارجوك ان تقترح ذلك على شريكي ، وسأقترح انا مثل ذلك على شريكتك .

ووافقتها على ذلك ، وهكذا رتب الامور بحيث يراقص شريكها شريكتي .

وشرعنا في الفالس . وفي البداية استمتعنا بحركات الفراعين المعتادة الرشيفة ، ويا لله ! ما أحلى رشاقتها ، وما أبسر حركتها ! ولما بدا الفالس وراح الراقصون يدور كل منهما حول الاخر في المتاهة الجالبية للدوار ، ساد شيء من الاضطراب ، لان بعض الراقصين لم يكونوا على

مستوى الكفاءة المطلوبة . وظللنا ثابتين في مكاننا ، متحين بذلك
للآخرين ان ينهكوا قواهم ، وما ان انسحب الراقصون الفغل ، حتى
اندمجنا نحن الاثنان في الرقص ، وصمدنا حتى النهاية ، نحن وراقصان
آخران ، هما اندران وشريكته ، ولم ارقص في حياتي كلها بمثل الخفة
التي رقصت بها تلك المرة ، حتى لقد خلت انني لست من ابناء الغناء ،
وانا اضم أحب مخلوقات الله بين ذراعي . واطير بها في سرعة الرياح ،
الى ان غاب جميع الاشياء عن ناظري . ولغد آليت في تلك اللحظة على
نفسي انه ما من فتاة احبها ، او اكن لها ادنى ارتباط وتعلق ، ينبغي ان
ادعها ترقص الفالس مع احد سواي . ولو ركب في سبيل ذلك اصعب
الاهوال ! وفي يقيني انك تفهم شعوري هذا .

ودرنا في القاعة عدة دورات لنسترد انفاسنا . ثم جلست شارلوت ،
وانتعثت بما تناولته من برتقال كنت قد جنبته معي ، ومع كل "فص"
كانت تعرضه - تادبا - على جيرانها ، كنت أشعر وكأن خنجرا يفوص
في قلبي .

وكنا ثاني راقصين في الرقصة الريفية الثالثة ، وفيما نحن متجهان
الى الحلبة (والله اعلم بأي نشوة كنت انظر الى ذراعيها وعينيها اللامعتين
باحلى مشاعر المتعة الصادقة الصافية) مررنا بسيدة كنت قد لاحظت
ملاحظتها ، مع انها لم تعد شابة . ونظرت هذه السيدة الى شارلوت
باسمة ، ورفعت في الهواء سبابتها وحركتها في ايماء تحذير ، وكررت
مثنى بلهجة ذات مغزى اسم «البرت» ، فقلت لشارلوت :

— ومن البرت ، اذا لم يكن في سؤالي هذا تطفل ؟

وهمت بالجواب ، عندما وجب علينا ان نفترق كي نعبر عن شغل معين
من اشكال الرقصة . ولما مر كل منا مرة اخرى بازاء الاخر لاحظت انها
تبدو شاردة الذهن الى حد ما ، وقالت وهي تمد لي يدها لمصافحة
خطواتي :

— ولماذا اخفي عنك هذا الامر ؟ البرت رجل فاضل ، وانا مخطوبة له .
ولم يكن شيء من هذا النبا مجهولا لدي (لان السيدتين كانتا قد
اخبرتاني به ونحن في الطريق الى بيتها) ، ومع هذا بدا النبا وكأنه جديد
تماما ، فانا لم افكر فيه من قبل على انه متعلق بتلك التي اُسميت - في
فترة وجيزة جدا من الزمان - شديد التقدير والاعزاز لها . واستولى
علي الاضطراب ، وخرجت على نظام الرقصة وترتيبها ، فنجم عن ذلك
اضطراب عام فيها ، بحيث اقتضى الامر كل حضور ذهن شارلوت كي

تصحح لي سياق خطواتي ، بجذبي ودفعي الى مكاني الصحيح .
ولم تكن الرقصة قد بلغت نهايتها بعد عندما اشتد عنفوان البرق الذي
كان منذ برهة قد بدأ يلوح عند خط الافق - وكنت قد عزوته عن يقين
الى اشتداد الحرارة - ثم سمع الرعد ، فعلا صوته فوق صوت الموسيقى .
ومن شان الفزع او الكدر عندما يفاجئنا وسط استمتاعنا بمسراتنا ان
يكون اشد وقعا على نفوسنا في اي وقت اخر ، وتكون حماسيتنا به
اشد ، ولعل ذلك راجع الى ان حواسنا عندئذ اكثر تفتحا للانطباعات
والمؤثرات ، مما يجعل الصدمة اقوى واشد . واني لأعزو الى ذلك ما
اصاب السيدات من ذعر وما صدر عنهن من صرخات ، فاذا باحداهن
تجلس في احد الاركان ، وقد جعلت ظهرها الى النافذة ، ووضعت
اصبعيها في اذنيها ، وركعت سيده اخرى امامها ، واخفت راسها في
حجرها ، واقت سيده تالفة بنفسها فيما بينهما ، وراحت تحنن
اخذها وهي تذرف سيلاً من الدموع . واصرت بعضهن على العودة السي
بوين . وغدت غيرهن غير واعيات لافعالهن ، واحتجن الى جهد شديد
يبدن في جميع شئنا اذهانهم كي يردعن ما تجاسر به شركاؤهن الدين
حاولوا تفسير تهديدهن الجياشة وصرفها الى اسخاصهم منتهزين فرصة
الاضطراب الذي عراهن بسبب الاحوال السماوية . اما الرجال فقد نزل
نعر منهم ليدخنوا سيجارا في هدوء ، في حين استجاب نفر اخر بكل
سرور الى اقتراح المضيقة بالانسحاب الى حجرة اخرى ذات مصاريع
خشبية وستائر . ولم تكن تدخلها حتى راحت شارنوت نصف الكراسي
وترتبها على شكل دائرة ، ولما اجاب الحاضرون دعوتها اياهم الى الجلوس
افرحت عليهم لمبة تصلح للجلوس على هذه الهيئة .
ولاحظت كيف استعد نفر من هذه الجماعة متوقعين عقابا لطيفا ،
عندما قالت شارلوت :

فلنلعب لعبة العدد . والان انتهوا جدا ، فسوف ادور حول الحلقة
من اليمين الى اليسار ، وعلى كل شخص ان يمضي في العدد ، الواحد
منكم تلو الآخر ، على الترتيب الصحيح ، ولا بد ان يتم هذا بسرعة ، ومن
يتوقف او يخطئ ، سيلقى ضربة على خده ، وهكذا تمضي اللعبة الى ان
يعمل العدد الى الالف .

وكان مبهجا ان يرى المرء الجهور والمرح يسودان الجميع ، وتسمد
انطلقت شارلوت تدور حول الحلقة بدراع مرفوعة . وقال الاول «واحد»
والثاني له «انان» . والثالث «ثلاثة» ، وهكذا ، الى ان اسرعت شارلوت

خطاها ، واخطأ احدهم ، فهبطت كف شارلوت على صدغه بلطف ،
ووسط الضحك الذي اعتقب ذلك هبطت صفة اخرى ، وهكذا ، بمزيد
من السرعة . وظفرت انا شخصيا بصفتين ، وخيل الي انهما كانتا اشد
من المعتاد ، انتابني لذلك سرور عميم ، وتكفل الضحك العام وما صحبه
من هرجلة بانهاء اللعبة قبل ان نصل في العدد الى الالف بكثير . وعندئذ
انفرط عقد الجماعة الى مجموعات صغيرة ، وكانت العاصفة قد توقفت ،
وقمت فتبعتم شارلوت الى قاعة الرقص . وفي الطريق الى هناك قالت :
- لقد بددت اللعبة ما اثارته العاصفة من الخوف .

ولم اجد ما اقوله ، فاستطردت :

- انا شخصيا كنت فزعة كسائرهم ، ولكن باصطناع الشجاعة لكى
ارفع روح الآخرين المعنوية بسبب مخاوفي .

وتوجهنا الى النافذة ، وكان الرعد لم يزل هادرا عن بعد ، والمطر
الخفيف يهطل ويملا الهواء من حولنا بعبير الريف . ومالت شارلوت الى
الامام معتمدة على ذراعها ، وجالت بعينيها تذرع المنظر الممتد امامنا ، ثم
رفعتهما صوب السماء ، ولم تلبث ان وجهتهما نحوي ، فاذا بهما مخضلتين
بالدموع ، ووضعت يدها فوق يدي وقالت :
- كلو بستوك !

وعلى الفور تذكرت القصيدة البديعة التي مرت بخاطرها ، وشعرت
بانني انوء تحت وقر احساساتي ، فقد كان ذلك اقوى من طاقة احتمالي ،
فانحنيت فوق يدها ، وقبلتها بين فيض مدرار من الدمع النشوان ، ثم
رفعت نظري الى عينيها . يا لكلوبستوك المقدس ! لماذا لم تر تمجيدك في
هاتين العينين ؟ واسمك الطاهر ، الذي طالما اصابه التدنيس ، كم اتمنى
لو لم اسمعه تعيد ترديده شفتان !

١٩ يونية :

لم اعد اذكر اين توقفت في سردي . كل الذي اعرفه ان الساعسة
كانت الثانية صباحا حينما اويت الى فراشي . ولو كنت معي لكنت
تحدث اليك بدلا من الكتابة ، وكنت حريا - اغلب الظن - ان استبقيك
يقظانا حتى مطلع النهار !

واعتقد انني لم اقصص عليك بعد ما جرى عندما ركبنا عائدين ادراجنا
من المرقص . وليس عندي لهذا الان متسع من الوقت .

لقد كان بزوغ الشمس رائعا ، وقد انتعش الريف كله ، والمطر يقطر نقطة نقطة من اشجار الغابة . وكان رفاقنا في المركبة نياما ، وسألتني شارلوت افلا احب انا ايضا ان انام ، ورجتني الا اتجسم الكلفة من اجلها ، فنظرت اليها نظرة ثابتة وأجبتها :
- ما دمت ارى هاتين العينين مفتوحتين ، فلا سبيل للكرى الى عيني .

وهكذا ظللنا - كلانا - يقظانين الى ان بلغنا باب دارها الذي فتحت له الخادمة بهدوء وخفوت ، وأكدت لها - ردا على استفساراتها - ان والدها والاطفال جميعا بخير ، وما زالوا نياما . وغادرتها ، بعد ان استأذنتها في ان ازورها في غضون النهار ، فأذنت ، وانصرفت الى داري . ومنذ هذه اللحظة وللشمس والقمر والنجوم ان تمضي في مداراتها ، اما انا فلم اعد اميز الليل من النهار ، لان العالم كله صار في نظري عدما .

٢١ يونيو

ايامي حافلة بالسعادة ، كتلك التي اعدّها الله لمختاريه ، وايا كان مصيري بعد ذلك ، فلن اقول اني لم أذق طعم الفرح ، كآنقي ما تكون افراح الحياة . وانت تعرف اين موقع فالهايم . وانا الان مسنفر هنالك تماما . ففي هذه البقعة اجد نفسي على مسافة نصف مرحلة من شارلوت ، وهناك اجد المتعة وأذوق جميع المباهج التي يمكن ان تكون من نصيب البشر .

وما كنت اتخيل وانا اختار فالهايم لرحلاتي سائرا على قدمي ان السماء بأسرها تقع على مقربة منها . وكم من مرة ، وأنا اتجول مبتعدا عن جانب التل ، او عن المراعي عبر النهر ، وقعت عيني على كوخ الصيد هذا ، الذي يضم تحت سقفه كل افراح قلبي !

وكم من مرة - يا عزيزي - فلهم - تفكرت في تلهف البشر على التجوال والوقوع على اكتشافات جديدة ، وفي الدافع الخفي السدي يحدوهم بعد ذلك للعودة الى دائرتهم الضيقة ، وفقا لقوانين العادة ، غير معنيين انفسهم اكثر من هذا بما يدور من حولهم .

وانه لمن الغريب انني عندما قدمت الى هنا اول مرة ونظرت الى الوادي الجميل من جانب التل ، شعرت بالافتتان بكل ذلك المنظر المحدد بي . . كانت الغابة الصغيرة قبالي - وما كان اجمل ان يجلس المرء تحت

ظلها ! وما كان ابهى المنظر من هذا الموقع الصخري ! ثم هناك سلسلة التلال ، وتلك الوديان البديعة الجائمة عند اقدامها ! ليتني اجوبها انسى نفسي بينها ! وذهبت اليها ، وعدت منها من غير ان اجد فيها ما ذهبت انشده . فالأبعاد والمسافات يا صديقي مثل المستقبل ، فالامتداد الغامض يترامى امام ارواحنا ، مدارك عقولنا لا تقل غموضا عن مدارك ابصارنا ، ونحن نتوق بكل صدق ان نسلم لها كياننا كله ، كي يمتلئ بالغبطة الكاملة التامة التي يفيضها علينا شعور واحد باهر . ولكن وا أسفاه ! عندما نبغ مقصودنا ويتحول ما كان بعيدا «هناك» ، الى ما هو حاضر «هنا» ، اذا بكل شيء وقد تغير ، واذا بنا على ما كنا فيه من فاقة وصيق ، واذا ارواحنا لهفانة متعطشة لم نزل الى السعادة التي لا تنال . وهكذا يحن الرحالة الذي لا يقر له قرار الى ثري مسقط راسه ، ويجد في كوخه ، وبين ذراعي زوجته ، وفي حنان اطفاله ، وفي الكسح الضروري لاعالتهم تلك السعادة التي ظل ينشدها عبثا في طول الدنيا وعرضها .

عندما اذهب في الصباح ، مع طلوع الشمس ، الى فالهايم ، وبيدي اجمع من الحديقة البازلاء التي ستكون عشائي ، وعندما اجلس لآفترها ، وعندما اقرا هوميروس فيما بين ذلك كله ، ثم اختار من المطبخ مقلاة ، واحضر زبدي ، واضع على النار المقلاة وفيها مطلوبي للطعام ، واغطيها ، ثم اجلس ، واقبلها كلما احتاجت الى التقلب - حينئذ ارى بعين خيالي خاطبي بنيلوبي الامجاد ، وهم يذبحون ويتبنون ويعدون ثيرانهم وخنازيرهم بأيديهم . وما من شيء يملؤني بسعادة اصدق وانقى من تأمل سمات هذه الحياة الغابرة التي استطيع - شكرا للسماء !- ان احاكيها بلا تكلف ار تعمل . وما اسعدني ان يكون قلبي قادرا على الاحساس بعين تلك اللذة البريئة البسيطة التي يحسها الفلاح الذي تحفل مائدته بأغذية من نتاج زراعته وتربيته ، فلا يستمتع بطعامه فحسب ، بل يتذكر بتلذذ في الوقت نفسه ايضا الامسيات السعيدة التي قضاها في سقيه واستنباته ، والايام التي راقب فيها بحبور نماءه شيئا فشيئا .

٢٩ يوليو

امس الاول حضر الطبيب من البلدة ليزور القاضي ، فوجدني على الارض الارباع اطفال شارلوت ، وكان بعضهم قد تكاثروا علي ، والآخر

مرحون معي ، وانا امسكهم ادغدغهم ، فتصدر عنهم جلبة عالية . وهذا لطبيب شخص من المتسكين بالرسميات ، ولذا فهو مشغول دائماً بتسوية طباط ثيابه واهدابها وهو يتحدث اليك ، ولذا خال مسلكي هذا سميئاً الى المكانة والكرامة الواجبة للرجل العاقل الرزين . وقد قرأت هذا على سحننه ، ولكني لم اتجشم لهذا السبب الاقلاع عما انه بسبيله ، بل سمحت له ان يواصل احاديثه بينما انا مشغول باقامة بيوت الاطفال التي يبنونها من الورق المقوى كلما هدموها ، وقد انطلق هذا الطبيب في ارجاء البلدة بعد ذلك مرددا ان اطفال القاضي ، كانوا مدللين بما فيه الكفاية قبل ذلك ، اما الان فها هو فيتر يفسدهم تمام الافساد .

اجل يا عزيزي فلهم ، ما من شيء على وجه البسيطة يؤثر فسي فؤادي مثلما يؤثر فيه الاطفال . وعندما انظر الى افعالهم ، وأرى في هذه المخلوقات الصغيرة بدور جميع الفضائل والمزايا التي سيجدونها ذات يوم شيئاً لا غنى عنه ، وعندما الملح في العنيد منهم كل الجزم الذي يتحلى به في المستقبل الطبع النبيل ، وعندما الملح في التزق منهم الخفة والمرح اللذين يساعدان فيما بعد على تحمل متاعب الحياة ، وعندما اتبين صفاء طبيعتهم البسيطة النقية ، عندئذ اذكر القول الذهبي الذي ارسله معلم البشرية العظيم : «ما لم تصيروا مثل واحد من هؤلاء...»

ولكننا يا صديقي نعامل هؤلاء الاطفال - وهم اندادنا الذين ينبغي ان نعدهم قدوة لنا - نعاملهم كما لو كانوا رعايا ، فلا نسمح لهم بارادة خاصة بهم ، او ليست لنا نحن ارادة ؟ فمن اين استمددنا حقنا الاستبدادي ؟ الا اننا أسن منهم وأكبر وأكثر خبرة ؟ الله اكبر ! انك ترى الكل من علياء سمائك اطفالا كبارا واطفالا صغارا ، ولا زيادة . المسيح قد بين منذ زمن بعيد اي الفريقين مصدر المسرة الاعظم . ولكن الناس يؤمنون به ولا يصغون له . وهذه ايضا قصة قديمة ، ولذا فهم يربون اطفالهم على صورتهم .

وداعا يا فلهم ، فلست اريد ان ازعج نفسي بهذا الموضوع اكثر من هذا .

اول يوليو

في وسعي ان اعرف من تجربة قلبي مدى العزاء الذي تستطيع

شارلوت ان تمنحه لمريض ، فقلبي يعاني من بعادها او غيبتها اكثر مما يعانيه كثير من المساكين الذين يلزمهم المرض الفراش ، فقد رحلت شارلوت لقضاء بضعة ايام في البلدة مع امرأة فاضلة جدا نفّس الاطباء ايديهم منها ، فتمنيت هذه السيدة ان تكون شارلوت بجوارها في لحظاتها الاخيرة . وقد صحبتها في الاسبوع الماضي في زيارة لقس قرية س . وهي قرية صغيرة في الجبل ، على مسافة نحو مرحلة من هنا . وقد وصلنا الى هناك في الساعة الرابعة ، وقد صحبت شارلوت اختها الصغيرة . ولما دخلنا فناء بيت القس ، وجدنا الرجل المسن الطبيب جالسا على مقعد خشبي امام الباب ، في ظل شجرتي لوز كبيرتين . وما ان ابصر شارلوت قادمة حتى بدا وكأنما دبّت فيه حياة جديدة ، فنهض ، ونسي عصاه ، وغامر بالسير اليها ، فجرت نحوه ، وحملته على الجلوس كما كان ، ثم جلست بجواره ، وأبلغته رسائل من ابياها ، ثم لمحت اصغر اطفاله - وهو مخلوق صغير قدر قبّيح الشكل هو قره عين شيخوخته - فتبّلت . واتمنى لو تسنى لك ان ترقّب اعتناءها بهذا الشيخ ، وكيف كانت ترفع صوتها مراعاة لصممه ، وكيف جعلت تحدّثه عن الشباب الاصحاء الذين غالهم الموت فجأة ، وعلى غير توقع ، وكيف اطرت مزايَا كارلسباد ، وايدت اعتزامه قضاء الصيف القادم هناك ، وكيف اكدت له انه يبدو افضل واغوى مما رآته في المرة السابقة . وكنت انا في تلك الاثناء اوجه عنايتي الى زوجته الطيبة . وبدا الشيخ في حالة معنوية طيبة ، ولما لم اتمالك نفسي من الاعجاب بجمال شجرتي اللوز بظلهما اللطيف المستحب فوق رءوسنا ، شرع - في شيء من الصعوبة - بحدّثنا بتاريخهما ، فقال :

- اما كبراهما فلا ندري من غرسها ، فالبعض يعزّون ذلك الى هذا القس ، والبعض الاخر يعزّونها الى سواه ، اما صفراهما ، التي نراها من خلفنا ، فعمرها بالضبط مثل عمر زوجتي . . اي انها ستبلغ الخمسين في اكتوبر القادم ، لان والدها غرسها ذات صباح ، وفي المساء جاءت هي الى الدنيا . فقد كان ابوها سلفي في هذا المنصب ، ولا يسعني ان اخبرك كم كان شغوفاً بهذه الشجرة ، ولها عندي مثل هذا الاعزاز ايضا . ففي ظل هذه الشجرة بعينها ، فوق كتلة من الخشب ، كانت زوجتي جالسة تحيك الصوف عندما دخلت هذا الفناء وانا طالب فقير لأول مرة ، منذ سبع وعشرين سنة بالضبط .

استفسرت شارلوت عن ابنته ، فقال انها ذهبت مع الهر شميدت الى المرامي . وانها الان مع حاصدي العشب ، ثم استأنف الشيخ حكايته ، فاجبرنا كيف وجد هوى في قلب سلفه ، وكذلك ايضا بالنسبة لابنته ، وهكذا صار اولاً «خورية» (الكاهن المساعد ثم خلفه فيما بعد .

ولم يكذب يتم حكايته هذه حتى عادت ابنته عن طريق الحديقة ، وفي صحبتها الهر شميدت المذكور آنفاً ، فرحبت بشارلوت ترحيباً حاراً . واعترف انني اخذت شخصياً الى حد كبير بمنظرها ، فهي سمراء يسدل شكلها على الحيوية والمزاج المرح ، من ذلك الطراز الكفيل تماماً بتسليسة المرء فترة وجيزة وهو في الريف . وعاشقها (لان الهر شميدت هكذا بدا بوضوح) شخص مهذب ، متحفظ ، لم يشأ ان يتترك في محادثتنا برغم كل محاولات شارلوت لاستدراجه الى الاشتراك معنا . وقد ضايقنسي كثيراً عند ملاحظة سحنته ان هذا الصمت لم يكن مبعثه الافتقار الى الموهبة ، بل الزوه واعتلال المزاج . وقد غدا ذلك واضحاً اشد الوضوح عندما شرعنا نرى نزهة على الأقدام ، وقد صحبت فيها «فردريكا» شارلوت ، وكتب احداث في الطريق فردريكا ، فاذا وجه هذا الرجل الفاضل - الذي كان بطبيعته متجهماً - وقد أربد وعلاه الغضب الشديد ، حتى ان شارلوت اضطرت للمس ذراعي كي تذكرني بأنني افطرت في التحدث الى فردريكا . وما من شيء يعذبني مثلاً يعذبني ان ارى البشر يعذب بعضهم بعضاً ، ولا سيما عندما اجدهم في زهرة أعمارهم ، أو ان بهجتهم وسرورهم يضيعون ايام اشراقهم المعدادات في منازعات ومشاحنات ، ولا يفتنون الى خطئهم الا بعد فوات اوان كل اصلاح لحالهم . وكم ثقلت هذه الفكرة على خاطري . وفي المساء عندما عدنا الى منزل القس وجلسنا حول المائدة وأمامنا الخبز واللبن ، دار الحديث حول افراح الحياة واحزانها ، فلم استطع مقاومة الانحاء بالتشديد الشديد على سرعة الغضب وحدة المزاج، فقلت :

— اننا ميالون للشكوى والتذمر . ان ايام سعادتنا قليلة وايام تعاستنا كثيرة ، فلو ان قلوبنا كانت متاهبة باستمرار لتلقي النعم التي تنعطف بها السماء علينا لتسنى لنا ان نكتسب القوة الكفيلة بتحمل الشرور والبلايا عندما يأتي اوانها .

فقلت زوجة القس عندئذ :

— ولكن ليس في استطاعتنا دائماً ان نأمر مزاجنا او طبعنا فينقاد لنا . فما اكثر ما يتوقف ذلك على تكويننا البدني ، فعندما يعاني الجسد،

لا بد ان تضطرب النفس ويعتل الخاطر .
فأجبتها :

— أجل اني اعترف بوجاهة هذا القول ، ولكن علينا ان نحص هذا
الميل الى التذمر وحدة الطبع في ضوء معرفتنا بالامراض ، ونتساءل اليس
ثمة من دواء لهذا .
فقلت شارلوت :

— انه ليسرني ان اسمع بعلاج من هذا القبيل ، فأنا على الاقل اعتقد
ان الكثير يتوقف علينا شخصيا ، فهكذا الحال فيما يتعلق بي . فعندما
يحزنني (بضائقي) شيء ما ، ويعكر مزاجي ، اسرع الى الحديقة ، وأدندن
بتغمتين من أهازيج الرقص الريفى ، فيستقيم حال مزاجي على الفور .
فقلت :

— وهذا ما عنيته انا . فحدة الطبع ، مثلها مثل التراخي او الكسل ،
طبيعة فينا ، ولكن متى واتتنا الشجاعة مرة واحدة على مواجهة انفسنا
وحملها على غير هذه الخطة ، وجدنا الامور تستقيم لنا ، وشعرنا بالسرور
لما استطعنا بعد ان كنا محججين امامه .
وكانت فردريكا تصغي لهذا الحديث بانتباه شديد ، اما الشاب
فاعترض بأننا لسنا سادة انفسنا ، ولا سلطان لنا على طباعنا ، ومن باب
اولي لا سلطان لنا على مشاعرنا . فقلت له :

— ان الامر هنا متعلق بشعور غير مستحب ينبغى على كل منا ان
يتخلص منه ، ثم انه ما من احد يدرك مدى سلطانه على نفسه ومشاعره
الا بالمحاولة . والمرضى يسرهم ان يستشيروا الاطباء ، ويخضعون
لتعليماتهم الصارمة غاية الصرامة ، ويتعاطون ادويتهم المغشية ، كسي
يسترعدوا عافيتهم .

ولاحظت ان الشيخ الطبيب كان يفضي براسه ويجهد نفسه في الاصغاء
لكلامنا ، ولذا رفعت صوتي ، ووجهت كلامي مباشرة اليه :
— اننا نندد بالكثير جدا من الجرائم في عظائنا ولكنني لا اذكر موعظة
واحدة وجهت ضد حدة الطبع او اعتلال المزاج .
فقال القسيس الشيخ :

— قد يكون هذا سائغا جدا لكهنة المدن عندكم ، اما اهل الريف فلا
يعانون مطلقا من حدة المزاج ، وان كان ذلك قد يفيد احيانا ... كما في
حالة زوجتي ، وفي حالة القاضي ، مثلا ...

وضحكنا جميعا ، بما فينا القسيس ، من كل قلوبنا ، الى ان اسلمه
ذلك الى نوبة سعال ، قطعت سياق حديثنا برهة . وعاد الهر شميدت
للموضوع قائلا : -

انك تسمي حدة الطبع جريمة ، ولكني اعتقد انك ها هنا تستخدم
لفظا مفرطا في الشدة .
فاجبته :

- اطلاقا . فهي شيء اشد ما يكون ضررا لذواتنا ولجيراننا ، اليس
حسبنا ان نفتقد الى القوة التي تجعل كلامنا يسعد الاخر ، فهل لا بد لنا
ايضا ان يحرم كل منا صاحبه من المسرة التي نستطيع جميعا ان نستحدثها
لانفسنا ؟ انني الرجل القادر على اخفاء حدة طبعه ، ويتحمل العبء كله
منفردا من غير ان يكدر صفو المحيطين به . كلا . بل حدة الطبع تنشأ
عن شعور داخلي بافتقارنا الى الفضل او الزية ، وعن سخط يقترن دائما
بالحسد او الغيرة التي يولدها الغرور الاحمق ، اذ نرى اناسا سعداء لسننا
نحن مصدر سعادتهم ، فلا نطبق هذا المشهد !

فنفرت شارلوت نحوي وعلى وجهها ابتسامة ، ولاحظت الانفعال الذي
يصطبغ به حديثي ، وحفزني دمعة في عين فردريكا ان امضي في كلامي ،
فقلت :

- ول لاولئك الذين يستخدمون سلطانهم على قلب بشري ليدمروا تلك
المباهج البسيطة التي نعيم بها هذا القلب تنعما طبيعيا ! فجميع ما يمكن
ان يقدم بعد ذلك من الوان اللطف والرعاية لا يمكن ان يعوض هذا القلب
عن تلك السعادة التي دمرها ذلك الطفيلان القاسي !

وكان قلبي مفعما وانا اتدفق بهذا الكلام ، فقد تواردت على خاطري
ذكرى امور كثيرة جرت فيما مضى ، فملأت عيني بالدموع ، وهتفت :

- ينبغي ان نكرر لانفسنا كل يوم اننا ينبغي الا نتدخل في شئون
اصدقائنا ، اللهم الا لكي نتركهم خالين الى مبايحتهم الخاصة ، ما لم نكن
قادرين على مشاركتهم اياها ! اما اذا تناوشت افئدتهم انواع من الاحزان
والعذاب ، افلا ينبغي علينا ان نيسط اليهم بد العون ولو بأيسر العزاء ؟
وعندما يستولي المرض الاخير القاتل على المخلوقة التي عليك القدر ان تعد
لها احدها قبل الاوان وتراها راقدة امام عينيك شاحبة منهوكة القوى ،
وقد اتجهت عيناها الكابيتان الى السماء ورطوبة المتون ترحف على جبينها
الداوي - عندئذ تقف الى جوار سريرها كالمجرم المدان ، ويتملكك
الاحساس المرير بأن كل ما في يدك من ثروة لا تستطيع ان تستقدها ،

وبعصر هذا المخاطر قلبك ، لان كل ما اوتيت من طاقة لن يتيح لك ان تمدها بلحظة قوة واحدة في ساعة الرحيل ، ولا بلمحة عزاء واحدة عابرة وهي تودع الدنيا .

وفي هذه اللحظة انهالت على خاطري ذكرى منظر مماثل كنت قد شهدت ذات مرة ، فدفنت وجهي في منديلي ، واسرعت منطلقا من الحجر ، ولم يردني الى جاشي الا صوت شارلوت التي ذكرتني انه آن وقت العودة .

وباى رقة عدلتني ونحن في الطريق الى بيتها لفرط اهتمامي وانفعالي بكل امر يعرض لي ! وقالت لي ان ذلك خليق ان يلحق بي الضرر ، وانه ينبغي لي ان اخفف على نفسي . اجل يا ملاكي ! سأصنع هذا لاجلك .

٦ يوليو

انها لم تنزل مع صديقتها التي تحتضر . ولم تنزل ابضا هي بعينها ذلك المخلوق المشرق الجميل الذي يخفف محضه الآلام ، ويفيض السعادة فيما حوله أينما توجه . وقد خرجت بالامس مع شقيقاتها الصغيرات ، عرفت هذا وخرجت للملاقاتهن ، ومشينا معا ، ثم عدنا الى البلدة بعد نحو ساعة ونصف . ووقفنا عند النبع الذي اولعت به ، والذي صار الان احب الي الف مرة من ذي قبل . وقد جلست شارلوت فوق الجدار المنخفض ، وتجمعنا حولها . ونظرت حولي وتذكرت الوقت الذي كان قلبي فيه خليا ليس فيه من يشغله ، وقلت :

- ايها النبع العزيز الغالي : منذ ذلك الحين لم اعد ألم بك ، ولم آت لاستمتع بالراحة الندية بقرب جدولك الصافي ، بل كنت امر بك فسي خطوات غير مبالية ، وقلما اعرتك نظرة .

ونظرت الى اسفل فأبصرت شقيقة شارلوت الصغيرة «جان» ، قادمة تصعد الدرجات المفضية الينا وفي يدها كوب ماء ، فالتفت اني شارلوت وشعرت بتأثيرها ونفوذها علي . وكانت «جان» في هذه اللحظة قد اقتربت بكوب الماء في يدها ، وأرادت اختها «ماريان» ان تأخذه منها فصاحت الطفلة بأعذب تعبير :

- كلا ! بل يجب ان تشرب شارلوت أولا !

وسحرتني الاعزاز والبساطة اللذين نطقن بهما هذه الكلمات ، حتى انني حاولت ان ابر عن شعوري بالامساك بالطفلة ، ورفعها الي ، وتقيلها

بحرارة ، فذعرت وانشأت تبكي . وقالت شارلوت :

- ينبغي الا تصنع هذا .

وشعرت انا بالارتباك ، وأردفت شارلوت ، وهي تتناول يد الطفلة وتقودها هابطة الدرج مرة أخرى :

- تعالي يا جان .. لا ضير . اغتسلي بسرعة بالماء العذب .

ووقفت انا ارقبها ، ورايت العزيرة الصغيرة كيف تحك خديها بيديها المللتين ، اعتقادا منها ان كل الرجس الذي انتقل اليها من لحيتي القبيحة سوف يفسله عنها الماء السحري . وكيف انها أمعنت في ذلك بكل قوتها مع ان شارلوت قالت لها «حسبك !» ، وكأنها تعتقد ان الافراط في ذلك خير من التفرط ، وعندئذ - أؤكد لك - لم اشعر للعماد المقدس باجلال مثل الذي شعرت به عندئذ ، ولما صعدت شارلوت من النبع اوشكت ان اركع امامها .

وفى المساء لم استطع ان اغلب نفسي فرويت القصة لشخص كنت احسبه على شيء من التعور الطبيعي ، لانه من اهل الفهم والفتنة ، ولكن تبين لي مدى خطاي ! فقد زعم ان شارلوت ارتكبت خطأ كبيرا ، وانه ما كان ينبغي لها ان تخدع الاطفال ، وان مثل هذه الامور تسبب اخطاء وخزعات لا حصر لها . وعندئذ خطر لي ان هذا الرجل لم يتم عماده الا منذ اسبوع واحد ، ولهذا لم استطرد في الحديث معه في هذا الموضوع ، ولكني احتفظت لنفسى ، باعتقادي في صواب قناعتي ، وانه ينبغي لنا ان نتعامل مع الاطفال على نحو ما يتعامل الله معنا .. واننا اسعد حالا ونحن واقعون تحت تأثير الاوهام البريئة الساذجة .

٨ يوليو

يا للرجل من طفل : اذ يبتهل ويتضرع من اجل نظرة يتلف عليها !
يا للرجل من طفل حقا ! فقد ذهبنا الى فالهايم : ذهبت السيدات في عربة ، وأثناء مسيرنا ظننت اني رايت في عيني شارلوت السوداويين - واني لغر - ولكن اغفر لي هذا ! فلا بد لك ان تراهما - هاتين العينين .
اختصر القول لان اجفاني مشغلة بالنعاس فاذكر ان السيدات عندما ركبنا عربتهن مرة أخرى ، كان الشاب و. سلدستات ، واندرا ، وانا ، واقفين قرب الباب . وكانت المجموعة المرححة تضحك ويمزج بعضها بعضا . وراقبت عيني شارلوت ، وكانتا تتنقلان من الواحد الى الآخر ، ولكنهما لم

تقعا علي - علي انا الواقف هناك ساكنا بلا حراك لا يرى شيئا سواها !
واقراها قلبي سلام الوداع الف مرة ، ولكنها لم تلحظ وجودي قط .
وانطلقت العربية ، وامتلات عيناى بالدموع . ونظرت في انرها ، وفجأة
رايت قلنسوة شارلوت تنحني خارج النافذة ، والتفتت لتنظر خلفها - اكان
نظرها موجها الي انا ؟ . . لست ادري يا صديقي . وفي هذا الشك اجد
عزائي . فلعلها التفتت وراءها كي تراني . لعلها ! طابت ليلتك . وبأ لي
من طفل !

١٠ يوليو

ليتك ترى كيف ابدو نمرا وأنا وسط جماعة يرد فيها ذكر اسمها ،
ولاسيما اذا ما سئلت ببساطة عن رأيي فيها . يسألونني عن رأيي فيها !
لكم اكره هذا التعبير .. واي مخلوق هذا الذي يكنفي باستلطف
شارلوت ولا يذوب قلبه كله وحواسه كلها فيها كل الذوبان ؟ استلطفها ؟
لقد سألني بعض الناس اخيرا عن مدى استلطفاني «اوسيان» (١) .

١١ يوليو

مدام م - مريضة جدا . وأنا ابنهل الى الله ان يشفيها، لان شارلوت
تقاسمني آلامي. وأراها احيانا في بيت صديقي ، وقد قالت لي اليوم
أعجب شيء . فالشيخ م - رجل بخيل مقرر كثير الاشتهاء لما فى بـد
غيره ، وقد نكد حياة السيدة المسكينة زوجته ، بيد انها تحملت متاعها
وبلأباها في صبر . ولما انبأنا الطبيب منذ بضعة ايام ان شفائها ميؤوس
منه . ارسلت السيدة الى زوجها (وكانت شارلوت حاضرة) وخاطبته قائلة:
- عندي ما اعترف لك به ، وهو امر ربما احدث بعد وفاتي بلبلة
واضطرابا . فقد اسست بيت ودبرته حتى الان بأقصى ما وسعني من
التشفي والاقتصاد . ولكن يجب عليك ان تغفر لي انني غششتك على
مدى ثلاثين عاما : ففي بداية حياتنا الزوجية قررت لي مبلغا صغيرا

١ - «اوسيان» محارب وشاعر ايرلندي أسطوري «المترجم» .

لاحتياجات المطبخ وما الى ذلك من نفقات البيت . ولما نمت مؤسستنا ، واتسعت املاكنا عجزت عن اقناعك بزيادة الاعتماد الاسبوعي بما يتناسب مع ذلك . وقصارى القول انك - كما تعلم - ابيت حينما بلغت احتياجاتنا ذروتها الا ان اتكفل بكل شيء في حدود سبعة فلورينات في الاسبوع ، فكنت آخذ النقود منك بدون ان تشعر ، بحيث كنت أستعير نقص الاعتماد من خزانة نقودك ، لانه ما من احد يمكن ان يخطر له ان زوجتك تسرق خزانة الدار ، ولكني لم انفق شيئا هدرًا ، وكنت خليقة ان القى الديان يوم الحساب من غير ان ادلي لك بهذا الاعتراف ، لولا انني اريد للتي ستدير بينك بعد وفائي ان تتحرر من الحرج بالحاحك واصرارك على ان الاعتماد المسموح به لزوجتك السابقة كاف لجميع النفقات .

وتحدثت مع شارلوت عن مبلغ ما يتردى فيه بعض الرجال من العمى ، الى حد لا يمكن تصوره . وكيف يمكن لاي شخص الا يشك في وجود خديعة من نوع ما اذا كان كل ما يسمح به سبعة فلورينات لسد احتياجات تحتاج الى ضعف هذا المبلغ . ولكنني عرفت شخصا اناسا كانوا يعتقدون - وبدون دهشة ظاهرة للعيان - ان بيوتهم تنعم بالبركة التي تشبهه معجزات الانبياء .

١٢ يوليو

كلا ! لست مخدوعا . ففي عينيها السوداوين قرأت اهتماما حقيقيا اصيلا بي وبأحوالي . أجل اني لاشعر بهذا ، ولي ان اصدق قلبي الذي ينبئنني - ترى هل اجسر على قولها ؟ اتجاسر على التفوه بالالفاظ المقدسة ؟ - انها تحبني !

انها تحبني ! لكم ترفع هذه الفكرة من قدرتي وتسمو بي الى عين نفسي ! ولما كنت تفهم مشاعري يا صديقي ، ففي وسعي ان اقول لك كم ابجل نفسي منذ احببني !

فبل هذا محض افتراض او ظن ؟ ام هو وعي بالحق الصراح ؟ لست اعرف رجلا يمكن ان يحل محلي ويستأصلني من قلب شارلوت ، ومع هذا اشعر عندما تحدثت عن خطيبتها بكل هذه الحرارة والاعزاز وكأنني جندي جردوه من القابه ورتبه ونياشينه وسيفه !

١٦ يوليو

الا كم يخفق قلبي عندما أمس اصبعها عن غير عمد ، او تلتقي قدمي بقدميها تحت المائدة ! عندئذ أراجع وكأنما لمست أتونا محمى ! بيد ان قوة خفية تجبرني على الاقدام من جديد ، وتمسي حواسي نهيبا للاضطراب . ان قلبها البريء غير الواعي لم يعرف قط اي عذاب ممض توقعه بي هذه المخالطة اليسيرة ، فيحدث احيانا ، وهي تحدثني ، ان تضع يدها على يدي ، وفي حميا الحديث تقترب مني على سجيته ، فتهب انفاسها العتقة على شفتي ، فأحس وكان صاعقة اصابتني ، حتى لأوشك ان اغوص في الارض . ومع هذا يا فلهم ، وفي اطار هذه الثقة العلوية او انني أعرف نفسي ، وتجاسرت اطلاقا - انت تفهم طبعاً ما أريد ان اقول . ولكن كلا ! كلا ! ففؤادي ليس فاسدا الى هذا الحد - أجل انه ضعيف ، ضعيف جدا - ولكن البس هذا درجة من درجات الفساد ؟ انها في نظري كائن مقدس . وكل اندفاع عاطفي يسكن في حضرتها ولا املك ان اعبر عن احساساتي عندما اكون بقرها . بل اشعر ان روحي تخفق في كل عصب من أعصاب جسدي . وتمعن مقطوعة تحسن عزفها على البيانو بابداع ملائكي - مقطوعة بالغة البساطة ، ولكنها مع هذا بالغة الروحانية ! وهي معزوفتها المفضلة ، وعندما تعزف النغمة الاولى يرايلي كل احساس بالالم والهم والاسى في طرفة عين .

اني مؤمن بكل كلمة قيلت عن سحر الموسيقى القديمة . الا كم تسحرني اغنيته البسطة ! ويحدث احيانا ، وانا على اهبة الاقدام على الانتحار ، ان تغني تلك المقطوعة ، وعلى الفور يخفى الوجوم والجنون المخيمين على وجداني ، واتنفس بكل راحة وطلاقة مرة اخرى .

١٨ يوليو

فلهم ! ما الدنيا لدى افئدتنا بدون الحب ؟ ما الفانوس السحري بدون الضوء ؟ ما عليك الا ان تضئ الشعلة بداخله حتى تشرق على الجدار الابيض ابهى الصور والاشكال . ولئن كان الحب يربنا ظلالا عابرة فحسب ، الا اننا نشعر مع هذا بالسعادة عندما نراها - كالاطفال الصغار - فتخف بنا الاشباح البديعة وتطير بنا كل مطار .

لم يتيسر لي اليوم ان ارى شارلوت ، اذ عاقتني عن ذلك صحبة

جماعة لم استطع منها فككا . وماذا كنت عسا ان اصنع ؟ لقد ارسلت خادمتي الى بيتها ، كي يتسنى لي على الاقل ان ارى اليوم احدا نعيم بقربها وحدث ولا حرج عن نفاد صبري وانا أنتظر اوبته ، وعن الفرح الذي تلقيته به ! لقد اوشكت ان اضعه بين ذراعي واقبله ، لولا ان الحيساء تملكني .

يقال ان حجر «البونونا» اذا ما وضع في الشمس اجتذب الاشعة ، ولذلك يبدو مضيئا في الظلام برهة من الوقت . وهكذا كان الحال معي في شأن هذا الخادم . فان مجرد تفكيري ان عيني شارلوت استقرتا على سحنته ، وعلى خده ، بل وعلى زيه ، قد جعل هذا كله يبدو لي عزيزا عظيم القيمة ، حتى انني ما كنت لأرضى التفريط فيه عندئذ ولو مقابل الف كراون . مجرد حضوره اسعدني ايما سعادة ! وحذار ان تضحك مني يا فلهم ! ترى امن الممكن ان يكون ما يسعدنا الى هذا الحد مجرد وهم ؟

١٩ يوليو

عندما استيقظ في بكرة الصباح ، واطلعت بقلب جدلان الى الشمس المشرقة الجميلة ، أهتف بحبور :
— سأراها اليوم ! اليوم سأراها !
ثم تلا تخالجني اي رغبة اخرى ، فكل شيء متضمن في هذه الخاطرة.

٢٠ يوليو

لا يسعني ان اوافق على اقتراحك ان اصحب السفير الى ... فانا لا احب الخضوع او التبعية ، ونحن جميعا نعلم انه شخص فظ غير مستحب العشرة . وتقول ان امي تود لي ان استخدم ، ولم اتمالك نفسي من الضحك من هذا الرأي . او ليس هندي من الشغل ما يكفيني ؟ او لا يستوي في الواقع ان اقشر البازلاء او احصي حبات العدس ؟ ان العالم ينتقل من حماقة الى حماقة ، والمرء الذي يكدر لجمع المال او القصاب التشریف او اي شيخ اخر — لا لشيء الا مراعاة لرأي الآخرين ، وبغير ضرورة او رغبة خاصة به — ان هو الا احمق او غر !

٢٤ يوليو

أراك نلح كثيرا جدا في اصرارك اني أهمل رسومي ، بحيث يستوي عندي ان ألزم الصمت وان اعترف بقلّة ما رسمته في المدة الاخيرة .
وأراني لم أشعر في اي وقت انني أسعد مما انا الان ، ولم أفهم الطبيعة خيرا مما أفهمها الان ، حتى أهون ورقة من اوراق العشب ، وايسر نبتة باقية ، ومع هذا اراني عاجزا عن التعبير عن نفسي ، فقدراتي على التنفيذ امست واهنة جدا ، وكل شيء كأنه يسبح ويطفو امامي ، بحيث يعجزني ان اخط خطأ واضحا جريئا . ولكن احسبني خليفا ان احرز نجاحا اكبر لو انصرفت الى تشكيل الصلصال او الشمع . وسأحاول - اذا كتب لحالتي النفسية هذه ان نستمر امدا اطول - ان اتجه الى التشكيل ، ولو افضى ذلك مني ان أعجن الدقيق .
لقد سرعت في رسم صورة شارلوت ثلاث مرات ، وفي جميع هذه المرات كللت هامتي بالخزي ! وهذا ادعى لضيق ، لانه كان يسعدني من قبل غابة السعادة ان أرسم الوجوه . وقد خططت منذ ذلك الحين شكلها الجانبي ، ولا مفر لي من الاكتفاء بهذا .

٢٥ يوليو

اجل يا عزيزتي شارلوت ! سأرتب كل شيء ، وما عليك الا ان تكلفيني بمزيد من المهام ، وكلما كثرت المهام كان ذلك افضل . ولكن لا بد لي من ملتمس واحد : لا تستخدمى الرمل لتجفيف السطور الغالية التي تكتبينها الي ، فاليوم سارعت برفع رسالتك الى شفني ، ففرست بالرمل .

٢٦ يوليو

كثيرا ما قررت الا اراها بهذه الكثرة والتواتر ، ولكن من ذا السدى يملك المثابرة على هذا القرار ؟ ففي كل يوم أتعرض للغواية ، واقطع على نفسي العهد باخلاص انني سأظل في الغداة بعيدا عنها ، ولكن ما ان يحين الغد حتى اجد سببا لا يقاوم للذهاب اليها ، وقبل ان اعني ما اصنع الفتي

نفسي معها من جديد . فاما ان تكون قد قالت في العشية :

— سأتي غدا عن يقين ..

ومن براه عندئذ قادرا على ان يظل بعيدا عنها — او تكون قد كلفتني بمهمة من اي نوع ، فرى من الضروري ان اذهب لابلغها النتيجة بنفسى . او يكون جو اليوم ديمعا فاتمضى الى فلهايم . وما ان الى نفسي هناك حتى اكشف اننى لا ابعد عنها الا بمقدار نصف مرحلة . فانا اذن داخل دائره سحرها . وسرعان ما اجد نفسي بجوارها . وكان من عادة جدتي ان تروي لنا حكاية جبل من حجر المغناطيس ، فاذا ما اقربت منسه اى سفينة سلبها كل ما فيها من المصنوعات الحديدية ، وكانت المسامير تترك خشب السفينة لتطير الى ذلك الجبل ، وهكذا يهلك جميع بحارتها وسط ذلك الركام من الواح الخشب المتككة .

٢٠ يوليو

لقد جاء «البرت» . ولا مناص لي من الرحيل . فانه لو كان هو خير الرجال واباهم . وكنت انا دونه في كل شيء . لما اظن ان اراه متملكا هذا الكائن الشام الكمال . افول متملكا .. حسبي هذا يا فلهايم . ان خطيبها هنا . وهو شاب وسيم فاضل لا يملك المرء الا ان يستلطفه . ومن حسن طالعي انى لم اكن موجودا عندما النفا . فقد كان ذلك خليقا ان يحطم قلبى ! وهو شاذ شديد الرعاية بشعور الناس . فلم يحدث ان قبلها مرة واحدة في حضوري . جزته السماء على ذلك خيرا ! ولا بد لى ان احبه لما يعاملها به من الاحترام . وهو يظهر الرعاية لى ، بيد انى فيما اظن مدين بذلك الى شارلوت اكثر مما انا مدين به لاستلطافه اياي . فلدى النساء لباقة تنديده في هذه الامور . ولا بد لهن من هذا ، لانهن لا يفلهن ان يحتفظن على الدوام بمتنافسين على وئام فبما بينهما . الا انهسن اذا اولحن في هذا ، فهن الرابحات وحدهن !

ولا يسعنى الا ان اقدر البرت حق قدره ، فهده مزاجه يختلف اشد الاختلاف عن ابدفاع مزاجي الذي لا يستطيع ان اخفيه . ولديه احساس جم بالكنز الذي يحوزه متمثلا في شارلوت . وهو مبدأ من حدة الطبع ، وهى ابغض الخلال الى نفسي . ويمدني رجلا ذا فطنة ، وتعلقي بشارلوت واهتمامي بكل ما يتصل بها يزيدان من نشوة انتصاره وجه . ولسن انساءل الا يغفلها احيانا بشيء من الفيرة الهينة ، لعلمي اننى لو كنت في

مكانه لما وسعني ان اكون مبرءا كل البراءة من مثل هذه المشاعر .
ولكن ايا كان الحال في هذا الامر ، فبهجتي مع شارلوت قد انقضت .
ولك ان تسميها حماقة او افتتانا ، فماذا في اسم ؟ فالجوهر يتحدث عن
نفسه . ولقد كنت قبل قدوم البرت اعرف كل ما اعرفه الان . كنت
اعرف انني لا استطيع ان اصبو اليها ، ولا انا تطاولت الى ذلك - اي في
حدود استطاعتي وانا بمحضر كل هذه الملاحظة الا الهت تطلعا اليها ، والان
تخليني ، كالابله ، احمق في دهشة وقد جاء اخر وحرمني من موضوع
حبي .

اني لاعض شفتي ، واحس السخبط على اولئك الذين يطلبون مني ان
استكين ، لانه لا حيلة لي . الا فلأفر من نير مثل هذه الحيل والدرائع !
واني لاهيم في الغابات ، وعندما اعود الى شارلوت واجد البرت جالسا
بجوارها في البيت الصيفي بالحديقة ، لا اطيع ذلك ، واسلك سلوك الاحمق
الغر ، واقترف الف اندفاع نزع . واليوم قالت لي شارلوت :
- بحق السماء اكفف عنا المشاحنات من قبيل ما حدث ليلة البارحة ؛
انك لتروعني عندما تكون بمثل هذا العنف .
والحقيقة - فيما بيننا - انني ابتعد الان دائما عندما يزورها هو ،
واتسمر بالغبطة عندما اجدها بمفردها .

٨ اغسطس

صدقني يا فلهم انني لم اكن اعرض بك عندما تحدثت بهذه الشدة عن
اولئك الذين ينصحونني بالاستنكار للقدر الذي لا مناص منه ، لانه نم
يخطر ببالي ان في امكانك ان تكون من اصحاب هذا الراي . ولكنك في
الواقع على حق . وليس لي الا اعتراض واحد ، وهو ان المرء قلما يكون
مجبورا في هذه الدنيا على ان يختار بين بدلين لا ثالث لهما . فثمة انواع
متباينة جدا من السلوك والراي ، تماثل ما يوجد من شتى صنوف
التفاوت فيما بين الانف الاقني والانف الانطس .

واخالك تبيح لي ان الم بحجتك بأسرها ، ثم التمس لنفسني مهربا من
معضلتك . ان موقفك هو ما يخيل الي اني اسمعك تعبر عنه على
النحو التالي :

- اما ان تكون لديك آمال في الحصول على شارلوت ، او ليست لديك
آمال في الحصول عليها . فان كانت الاولى فامض فيما انت ماض فيه ،

وواصل الضغط والتقدم الى ان تحقق امنيتك . وان كانت الاخرى فكن رجلا ، وانفض عنك عاطفة تعسة حليقة ان تثير اعصابك وتدمرك . وهذا يا صديقي كلام طيب ، ما اسهل ان يقال . ولكن اترك تطلب الى مخلوق تعس تذوي حياته ببطء تحت وطأة مرض مخامر ان يجهز على نفسه دفعة واحدة وعلى الفور بطعنة خنجر ؟ او ليس الاختلال نفسه الذي ينهك قواه ويستنزفها خليفا ان يجرده من الشجاعة اللازمة للاقدام على هذا الاجهاز ؟

ولعلك مجيبي - ان شئت - بنشبيه مماثل :
- ومن ذا الذي لا يفضل بتر ذراع على تعريض الحياة كلها للهلاك ؟
ولكني على كل حال لست على يقين من انني على صواب ، فدعنا من هذه التشبيهات حسبك يا فلهم ! فثمة لحظات اتمنى فيها لو قوت على التهور ونقض هذا الامر كله عني ، واتمنى فيها لو فررت من هذا المكان ، لو عرفت اين المفر .

نفس الامسية

رأيت امامي اليوم مذكراتي التي اهملت امرها منذ مدة ، واني لفي رجب من امرى كمف ورطب نفسي في هذه المأثرة خطوة في اثر خطوة . واني لاعجب منى كيف كتب ارى موقفي بهذا الوضوح كله ، ومع هذا بصرفت بصرى الطفل الفريز ! بل اني لم ازل ارى النتيجة بوضوح ، ومع هذا لا افكر فى النصرف بمزيد من الحيلة .

١٠ اغسطس

لو لم اكن غرا اوسعني ان اقضي هنا اسعد وابهج حياة . فقلما تجتمع معاقل هذه الظروف المستحبة التي تكفل سعادة الانسان الفاضل . ولكن وا اسفاه ! كم احس ان القلب وحده هو الذي يصنع سعادتنا ! فما حظى المرء ان يجد نفسه عضوا مقبولا في اسرة بكل هذا السحر ، وان يكون محبوبا كابن لدى الوالد فيها ، وكاب لدى اطفالها ، ومحبوبا ممن شارلوت ! - نم هناك البرت النبيل الذي لا يعكر سعادتي مطلقا باي اماراة من امارات الشبق او حدة الطبع ، وبتلقاني دائما باحر مودة ، ويؤثرني - بعد شارلوت - باكرم حب في العالم ! ولا شك انك ستسر يا فلهم

لسماعنا ونحن ماضيان في نزهاتنا واحاديثنا كلها عن شارلوت . وما من شيء يمكن ان يكون اسخف من ارتباطي به وارتباطه بي ، ومع هذا فالتفكير في هذا الارتباط يدفع بالدمع احيانا الى عيني . وهو يحدثني احيانا عن امها الممتازة ، وكيف انها وهي على فراش الموت قد عهدت ببنيتها واطفالها الى شارلوت ، اما شارلوت نفسها فقد عهدت بها اليه ، وكيف ان روحا جديدة - منذ ذلك الحين - قد استولت عليها ، وكيف ان عنايتها وقلقها على راحتهم ورفاهيتهم قد جعلها اما حقيقية لهم ، وكيف ان كل لحظة من لحظات وقتها صارت مخصصة لعمل من اعمال محبتها لهم وانشغالها بهم - ومع هذا كله لم يفارقها مرحها وحبورها طرفة عين .

واني لأسير الى جواره ، واقطف الازهار وانا ماض في سيري . فأصوغ منها عقودا مجدولة ، ثم القي بها في اول جدول تصادفه فسي طريقنا ، وارقبها وهي تطفو مبتعدة في اناة .

لست ادري هل نسيت ان اخبرك ام اخبرت ان البرت سيظل مقيما هنا ، اذ عرضت عليه وظيفة حكومية ذات راتب طيب للغاية . وقد فهمت انه يتمتع بحظوة عظيمة في البلاط . والواقع انني قلما التفت بشخص يضارعه في دقة المحافظة على المواعيد والمثابرة على العمل .

١٢ اغسطس

لا شك في ان البرت افضل رجل في العالم . وقد حدثت بيني وبينه مشادة غريبة بالامس ، اذ ذهبت لادعاه لانه قام براسي ان اقضي بضعة ايام في هذه الجبال التي اكتب اليك منها الان . وبينما انا اذرع حجرته وقع نظري على غدارتيه ، فقلت له :

- أعرنى غدارتيك هانين لرحلتي .

فاجابني :

- بكل سرور ، بشرط ان تتولى حشوهما ، لانهما معلقتان هنا مجرد الزينة .

وانزلت من موضعها احدهما ، واستطرد هو :

- انني منذ اوشكت على الاصابة بأذى من فرط حذري ، وانا ارفض

ان تكون لي بمثل هذه الاشياء صلة .

وأبدت له فضولي لمعرفة قصة ذلك . فقال :

— كنت مقيما منذ ثلاثة اشهر في بيت صديق لي بالريف ، وكان معي طاقم من الغدارات غير المحشوة ، وكنت انام خالي البال . . وذات عصر مطر كب جالسا بمفردي . لا اصنع شيئا ، عندما خطر لي ان البيت قد بهاجمه اللصوص في تلك الليلة ، وعندئذ نحتاج الى استخدام الغدارات . وانت تعرف كيف يجمع بنا الوهم عندما لا يكون لدينا ما يشغلنا . فاعطيت الغدارات للخادم كي ينظفها ثم يحشوها . وكان يلعب مع الخادمة ويحاول نروبها عندما انطلقت احدى الغدارات ، والله وحده يعلم كيف حدث هذا ! وانطلقت الرصاصة مختربة يدها اليمنى . ودمرت ايهامها . وكان على ان انحمل كل العلق والعذاب ، وادفع اجر الجراح . ومنذ ذلك اليوم وأنا ابقى جميع اسلحتي غير محشوة . ولكن يا صديقي — ما جدوى الحذر ؟ اننا لن نكون على حذر من جميع الاخطار الممكنة ، ومع هذا . . .

وانت يا صديقي تعلم انني كليل بتحمل الناس جميعا الى ان يصلوا في قواهم الى عبارة «ومع هذا» . لانه من الجلي بذاته ان لكل فاعلة في الدنيا استثناءاتها . ولكن البرت شخص بالغ الدقة ، شديد التطرف فيها . بحيث انه اذا نوههم انه قال كلمة واحدة فيها تسرع ، او امراط في التعميم ، او نصف صادقة ، لم يتوقف بعد ذلك عن التعديل والاحتسار والتحديد ، بحيث ينتهي به الامر وكأنه لم يقل شيئا على الاطلاق . وبني هذه المرة كان البرت مستغرقا عمقا استغراق في موضوعه ، فكففت عن الاصفاء اليه وشردت خاطري في حلم من احلام اليقظة ، وبحركة مفاجئة وجهت فوهة الغدارة نحو جبيني ، فوق العين اليمنى ، فصاح البرت ، موجها الغدارة الى الخلف :

— ماذا تعني ؟

فقلت :

— ولكنها غير معبأة !

فاجابني بصبر نافذ :

— وان تكن غير معبأة ! فما الذي يمكن ان تعنيه بهذا ؟ انا لا افهم كيف يمكن لاي امريء ان يبلغ به الجنون الى حد اطلاق النار على نفسه . ومجرد هذه الفكرة في حد ذاتها تصدمني .

فقلت :

— ولكن لماذا يخاطر اي امريء عند الحديث عن فعل ما بان ينعته بالجنون او الرشذ ، وبانه خير او شر . حسن او رديء ، وما معنى هذا

كله ؟ ادرست بعناية الدوافع الخفية لافعالنا ؟ اتفهم ... او يمكنك ان تشرح الاسباب المفضية اليها ، والتي يجعلها لا مفر منها ؟ لو ادركت هذا كله لكنت اقل من هذا تسرعا في احكامك .

فقال البرت :

- ولكنك توافني على ان من الافعال ما هو اجرامسي ، ايا كانت البواعث التي تنبثق منها هذه الافعال .

فوافقته على قوله هذا ، وهزئت كتفي ، وارذفت :

- ولكن مع هذا - يا صديقي الطيب - ثمة استثناءات ها هنا ايضا . فالسرقة جريمة ، بيد ان الشخص الذي يرتكبها مدفوعا بغافه الشديدة ، ولا غاية له الا استنقاذ أسرته من الهلاك ، اتراه خليقا بالراء أم بالعقاب ؟ ومن ذا الذي يلقي بأول حجر على الزوج الذي يندفع بحرارة السخط فيجيز على زوجته الخائنة ومفويها الخائن الفادر : او على الفتاة النسي نسيت نفسها في ساعة ضعفها امام اللذة وانساق مع مسرات الحب الطائشة ؟ ان قوانيننا نفسها - على ما تتسم به من برودة القسوة - تلين امام هذه الحالات ، وتحجم عن العقاب .

فقال البرت :

- هذه مسألة اخرى ، لان المرء يفقد - تحت تأثير العاطفة الجامحة العنيفة - كل قدرته على اعمال الفكر ، ويعد عندئذ في حكم المخبور او المخبون .

فاجبته باسم :

- اوه . انكم يا اهل الفهم السليم مستعدون دائما ان تصيحوا : « هذا تهور وجنون وغيبوبة ادراك ! » فانتم ايها الاخلاقيسون بالفو الهسدوء والانضباط ! ولذا تحتقرون المخبور والمتهور ، فتمرون به مرور اللاوي ، وتشكرون الرب - كالفريسي - لانكم لنستم مثلهما . اما انا فسكرت حتى غاب رشدي اكثر من مرة . وكانت عواطفي دائما تحوم حول التهور ، ولا يخزني ان اقر لك بهذا ، لاني تعلمت ، من تجربتي ، ان جميع الرجال الخارجين للمعتاد ، الذين حققوا اعمالا عظيمة ومدهشة كانوا منذ الازل متهمين في نظر العالم بانهم سكارى او مجانين . وكذلك الحال في الحياة الخاصة ايضا ، فما ان يتصدى احد لانجاز عمل نبيل او كريم حتى ترتفع الصيحة هنا وهناك ان هذا المرء مخبور او مخبون ؟ الا خزيا لكم ، ايها الحكماء !

فقال البرت :

— هذه اندفاعة اخرى من اندفاعات مزاجك المتهور . فمن دأبك دائما ان تبالح في كل قضية ، وما من شك انك في هذا منخطئ ، لاننا كنا نتحدث عن الانتحار ، الذي تقارننه انت وتشبهه بالاعمال العظيمة ، مع انه من المستحيل ان تنظر اليه الا على انه ضعف . وان يموت المرء أسهل بكثير من ان يتحمل حياة الشقاء بصبر وتجلد .

وكنت على وشك ان انهي المناقشة ، لانه ما من شيء يستنفد سيري ويخرجني منه مثل التفوه بأقوال شائعة بينما انا اتحدث من سويداء قلبي . ومع هذا هدأت نفسي لانني كثيرا ما سمعت من قبل هذه الملاحظات بعينها بغيظ شديد ، وأجبنه بشيء من الحرارة :

— انت تسمي هذا ضعفا ، فحذار ان تضللك المظاهر . اذا تمردت امة طال انينها تحت نير طاغية لا يحتمل ، وطرحت عنها اغلالها في النهاية . انراك تسمي هذا ضعفا ؟ ان المرء الذي يستنفد بيه من السنة اللهب لطفى فواه البدنية وقد تضاعفت ، بحيث يرفع بكل يسر اثقالا لا يكاد يعوى على تحريكها في غيبة هذه الانارة ، كذلك من يهاجم عشرين شخصا من اعدائه ويحملهم على ان يولوا الادبار ، وهو تحت تأثير الغضب لاهائس . لحقته ، اترى مثل هذين يمكن ان يرميا بالضعف ؟ يا صديقي الطيب ، اذا كانت المقاومة قوة . فكيف يسوغ لك ان تسمي اعلى درجات المقاومة ضعفا ؟ فنظر الي البرت بامعان وقال :

— عفوك ! ولكني لست ارى ان الامثلة التي اوردها لها ادنى صلة بالموضوع .
فقلت :

— هذا جائز جدا ، لانه كثيرا ما قيل لي ان اسلوبني في النمثيل او التشبيه يقع بعض الشيء على حدود السخف او التناقض ! ولكن هيا بنا نر هل لا يسعنا ان نضع المسألة في ضوء اخر ، او من وجهة نظر اخرى ، بأن نسأل ماذا عسى ان تكون الحالة النفسية لشخص يقرر ان يحرر نفسه من عبء الحياة — وهو عبء كثيرا ما يطيب حملها — لاننا بدون ذلك لا يمكن ان نفكر في الموضوع تفكيرا منصفا . فالطبيعة البشرية اما حدودها ، فهي قادرة على تحمل درجة معينة من الفرح ، والحزن ، والالام ، ولكنها تتهاوى اذا ما تجاوزت جرعة هذه المشاعر حدود طاقتها احتمالها . فالمسألة اذن ليست هل المرء قوي ام ضعيف ؟ بل هل هو قادر على تحمل هذا القدر المعين من العذاب . والعذاب قد يكون معنويا

او بدنيا ، وفي رأيي انه من السخف ان نتعت امرا بالجين لانه قتل نفسه ، كما انه من السخف ان نتعت بالجين من راح ضحية حمى خبيثة .

فصاح البرت :

— هذه مغالطة ! مغالطة !

فاجبته :

— انها ليست مغالطة بالفدر الذي تتصوره . فانت موافق اننا نتعت المرض بانه قاتل او مميت عندما يشند عنقه ضد الطبيعة ، بحيث يستنفد قواها ، فلا تستطيع ان تعود سيرتها الاولى ... والان ، يا صديقي الطيب ، هيا بنا نطبق هذا المبدأ على النفس . وراقب شخصا في حالته الطبيعية المفردة ، وكيف تعمل الافكار والخواطر لديه ، وكيف تتكالب عليه الانطباعات والمؤثرات ، الى ان نستولي عليه عاطفة عنيفة مدمرة كل ما يتمتع به من تفكير هادىء ، وتحطمه في النهاية كل التحطيم . وعبثا يحاول شخص سليم العقل سوى النفس هادىء الطبع ان يفهم حالة مثل هذا الموجود التمس ، وعبثا يحاول اسداء النصع اليه . وانه ليعجز عن توصيل حكمته اليه ، مثلما يعجز الشخص الصحيح المعافى ان يثبت قوته في الليل الذي يجلس بجوار فراشه .

وكان رأي البرت في هذا الكلام انه «عام» اكثر مما ينبغي . فذكرته بفثاه كانت قد اغرقت نفسها منذ برهة وجيزة ، ورويت له قصتها .

وكانت هذه الفتاة مخلوقة طيبة ، نشأت في الجو الضيق المقفل الذي يسود الاجتهاد المنزلي والعمل المحدد لكل اسبوع . فكانت لا تعرف بهجة تتعدى النزهة سيرا على الاقدام يوم الاحد ، منخدة لذلك ابهى زينتها ، ومعها صديقاتها . ولعلها كانت تشارك احيانا في الرقص اذا اقيم مهرجان او حفل راقص ، وتزجي ساعات فراغها في الرثسرة مع جارة لها ، فتتناقشان في فضائح القرية او مشاحناتها ، وهذه كلها شواغل يسيرة تافهة كافية لملء فراغ قلبها . وفي النهاية تأثرت حرارة طبيعتها برغبات جديدة طارئة . ولما الهبت مشاعرها عبارات الشاء يزفها الرجال اليها ، بدت لها مسراتها البريئة السابقة غثة باهتة لا طعم لها ، الى ان التقت اخر الامر بشاب أحست انها منجذبة اليه بشعور لا سبيل لها الى وصفه ، واصبحت تعقد عليه كل آمالها ، ونسيت العالم من حولها فهي لا ترى ولا تسمع ولا تتمنى شيئا سواه ، وسواه فحسب . هو وحده يحتل جميع افكارها ، واعزازها كله لا يتفيا شيئا غيره فكل معناها ان تصير له ،

وتحقق في اتحاد أبدي معه كل تلك السعادة التي كانت تنشدها ، وكل
النشوة التي كانت تصبو إليها . وكانت وعوده وعهوده المنكرة تؤكد لها
امانيها ، واستولت على روحها ضمائه وكلمات التدليل التي تندفق من فمه
وتزيد رغبتها المتفددة ضراما . وهكذا غدت وكأنها تطفو وسط عتمة مطبقه
تفرر بها وتمنيها بما تتوقعه من سعادة ، واستثيرت مشاعرها العذراء
حتى جاوزت ذروة التوتر . ومدت ذراعها عندئذ لتعانق موضوع امانيها
الواحد ... وبعدها تخطى عنها حبيبها . واخذت الفاة واخطلت عليها
الامر ، والفت نفسها على تنفها هادية ، والظلام مطبق من حولها . فلا
امل امامها ، ولا مهرب ، لا عزاء ولا سلوان - فقد تخطى عنها ونبذها من
كان وجودها كله مركزا فيه ! فلم تعد ترى شيئا في العالم كله امامها ، ولم
تعد ترى احدا في الافراد الكثيرين الذين يمكن ان يملأوا فراغ قلبها .
انها مهجورة منبوذة من العالم كله ، واعياها هذا الالم الممض الذي يعتصر
روحها ودفعها دفعا الى الارتماء في قاع الهاوية ، كي تضع نهاية للالام
بين احضان الموت . ان عليك يا البرت ان ترى في هذه الحكاية قصة
اللوب من سيلانها . والان خبرني ، اليس هذه حالة علة بدنية ؟ ليس
للطبيعة من سبيل الى النجاة من النيه . وقد انهكت قواها واستنفدت .
ولا قبل لها بالمضي في الصراع والتحمل اكثر من هذا ، فكان لا بد للتعسة
ان تموت ! واخزى الله من يستطيع ان ينظر اليها بكل هدوء ويقول : «يا
الفناه الحمقاء ! كان ينبغي عليها ان تترث ، كان ينبغي عليها ان تتيسح
للمن فرصة محو هذا الانر . فتخف حده ياسها . وكانت خليفة ان نجد
حبيبا اخر يسري عنها !» آلا ما اشبه هذا بقول من يقول : «يا للاحمق !
ايموت بحمي ؟ لماذا لم يترث الى ان يسترد قواه ، وتهدا سورة دمه ؟ لقد
كان كل شيء عندئذ حريا ان يسير على ما يرام ، وكان خليقا ان يكون حيا
بيننا الان .»

ولم يسطع البرت ان يبين صواب هذه المفارقة ، فأدلى بمزيد من
الاعتراضات ، وكان من بينها اني انتقيت حالة فتاة جاهلة ، وانسه لا
يستطيع ان يفهم كيف يمكن التماس الاعذار لشخص عاقل اوسع من هذه
الفاة أفقا وخبرات . فهتفت به :

— البشر بشر يا صديقي ! وبالغا ما بلغ مدى قدرته على التفكير
والتعقل ، فهذه القدرة لا تجديه فتيلة عندما تعصف به الالهواء والمواطف ،
ويلقى نفسه محصورا في حدود الطبيعة الضيقة . وكان الاولى في هذه

الحالة ولكن لندع هذا الحديث الى فرصة اخرى .
وتناولت قبعتي ، فقلبي كان قد أفعم ، وافترقنا من غير ان يقنع
احدنا صاحبه . فما اندر ما يفهم البشر بعضهم بعضا في هذا العالم !

١٥ اغسطس

لا يمكن ان يكون هناك شك في انه ما من شيء لا غنى عنه في هذا
العالم سوى الحب . والاحظ الان ان شارلوت ما كانت لتفقدني من غير
رخزة الم . والاطفال انفسهم ليست لهم الا امنية واحدة ، ان آنسي
لربارتهم مرة اخرى في الغد . وقد ذهبت اليوم بعد الظهر لضبط اوتار
بيانو شارلوت ، ولكنني لم استطع ذلك ، لان الصغار اصروا ان احكي لهم
حكاية ، وحثتني شارلوت نفسها على ان ابي رغبتهم . وسقيتهم الشاي ،
وهم الان مسرورون بي راضون بوجودهم معي رضاهم بالوجود مع شارلوت
تماما . وقد رويت لهم افضل حكاياتي عن الاميرة التي كان يخدعها
الاقزام . واني اتقدم بفضل هذا التدريب ، حتى اني ادهش للانطباع الذي
تتركه حكاياتي . واذا اخترعت احيانا حادثة ثم انسائها في السرد التالي
لنفس الحكاية ، ذكروني بها على الفور وقالوا ان الحكاية كانت مختلفة في
المررة السابقة ، ولذا اجتهد الان ان اروي حكاياتي بدقة وبنفس الصوت
الرتيب الذي لا يتغير ابدا . وهكذا اكتشفت مبلغ خطأ المؤلف الذي يغير
في اعماله ، ولو بتحسينات من وجهة النظر الشعرية . فالانطباع الاول
يتلقاه الناس طوعية . ونحن بجبلتنا نصدق ابعاد الاشياء عن التصديق ،
ومتى نقشت في الذاكرة ، فالويل لمن يحاول محوها !

١٨ اغسطس

الا بد دائما من ان يكون الحال هكذا : اي لا بد لمنع سعادتنا ان يكون
ايضا ينبوع شقائنا ؟ ان الشعور الجارف المتقد الذي اذكي في قلبي حب
الطبيعة ، وغمرني بطوفان من البهجة ، وجلب الفردوس بأسره امامي ، قد
انقلب الان عذابا لا يحتمل . . انقلب شيطاننا يتعقبني باستمرار ويدهمني
بلا توقف . لقد كنت - في الايام الخوالي - انظر من هذه الصخور ، مطلا
على تلك الجبال عبر النهر ، على الوادي الاخضر المزهر الممتد امامي ، وأرى
الطبيعة بأسرها تتفجر بالحياة متمثلة في البراعم من حولي ، وأشهد

اللال المكسبة من فرعها الى قدمها ، ومن سفوحها الى قممها ، بأشجار الغابة الباسقة . واشهد الوديان بكل منحنياتها المتباينة ، تظللها إبداع الاحراش . والنهر ينساب فيما بين الاعشاب المتناوحة ، وقد انعكست فى صفحة السحب الجميلة التي بزجبتها النسيم العليل عبر السماء . وعندما كنت اسمع الخماثل من حولي نعج بموسيقى الاطيار المتناغمة ، وارى ملاسن الهوام تتراقص فى اخر شعاعات الشمس الذهبية التي توفظ انوارها القارية الخنافس فتندندن من اعماق مهادها المعشوشبة ، فى حس اسرع انسابها الى الارض الجلبة المحدقة بي ، وهناك الصخر الاجرد يغيب المعتب الجاف . بنما نبات الخلتج يزدهر فوق الرمال من تحسى . . . هذا كله كان يعرض على انظاري واحساسى بالدفع الداخلي الذي يحرك الطبيعة جمعاء . وبملا فليبي فى داخل صدرى بالوهج . فكنت استمرى وامجد بادرائى قدرة الرب فى هذا الكون اللامتناهي ، وانما اراها راي العمان !

جبال هائلة كانت تحدف بي ، والمهاوي كانت تغفر فاها تحب اقدامي ، والشلالات البادرة كانت تندفق امامي . والانهار الجياشة المندفعة تندفق سخرقة السهل المرامي . والصخور والجبال تردد هذه الاصدا من بعيد . وفي اعماق الارض رابت قوى لا حصر لها تموج بالحركة ، فتتضاعف الى ما لا نهاية . فى حين تدب على سطحها ، وتحث قبة السماء عرات الالوف من الكائنات الحية . ان كل شيء من حولي حي بحياة ليس لاشكالها حصر ، فى حين يلوذ البشر السماسا للامن ببيوتهم الضئيلة ، ومن اعماقها يسيطرون - فى خيالهم - على الكون المترامي . يا للحمقى الانحرار ! ففى وهمهم الكايل ان كل شيء صغير الحجم . ولكن من الجبال التي لا تبلغ الاقدام ذراها ، وعبر الصحراء التي لم تدب فوقها قدم بشر ، ومن اغوار المحيط المجهول ، تهب انفاس الروح الازلي الخالق . وكل ذرة منحها الوجود تجد نعمة فى عينيه . وكم من مرة الهمتنى الطيور المحلفة اسرابها من فوقى الرغبة فى الانتقال الى شواطئ الامواه التي لا نهاية لها كى اجرع مباهج الحياة من الكأس اللانهائية ، وكى اشارك - ولو اللحظة واحدة - بقوة روحي المحدودة فى غبطة هذا الخالق الذي يحقق كل شيء فى ذاته وبلداته !

يا صديقي العزيز ، ان مجرد تذكري هذه الساعات لم يزل مصدر عزاء لي . بل ان هذا الجهد لتذكر هذه المشاعر التي لا توصف والتعبير

عنها يسمو بروحي فوق قدرها ، ويجعلني احس احساسا مضاعفا بقلقي
الراهن . وكأنما انجابت الان ستار من امام عيني ، وبدلا من منظورات
الحياة الابدية رايت هوة فاعرة فاها كالقبر امام ناظري . افي وسعنا ان
نقول عن اي شيء انه موجود حقا ما دام كل شيء الى زوال ، وما دام
الزمن يجرف كل شيء امامه بسرعة العاصفة . ووجودنا العابر ، الذي
يدفعه الطوفان العارم امامه اما ان تبتلعه الامواج ، او يتحطم على الصخور !
ما من لحظة الا وهي تفترسك ، وتفترس كل ما يحيط بك . ما من لحظة
لست فيها - انت نفسك - اداة للدمار . فاشد المسيرات براءة تحرم
الحياة الوف الهوام المسكينة ، والخطوة الواحدة تدمر ما جمعه النملة
الدؤوب ، وتحول عالما صفيرا الى هيولي . كلا ! ليست الكوارث النادرة
الجسام في هذا العالم ، ولا الفيضانات التي تحرق قرى بأسرها ، ولا
الزلازل التي تبتلع مدنا ، هي التي تؤثر في ، بل يعذب قلبي التفكير في
القوة المدمرة التي تكمن في كل جزء من الطبيعة الكلبة . فالطبيعة لسم
تشكل شيئا لا يستهلك نفسه ، ويستهلك كل ما هو قريب منه . وهكذا
اتجول وأنا موجع القلب أسى على ما يحيط بي من ارض وهواء وقسوى
ناشطة في كل شيء ، حتى لقد غدا عندي الكون وحشا رهيبا يلتهم
ذراياه باستمرار .

٢١ اغسطس

عبثا امد ذراعي نحوها عندما استيقظ في الصباح من تهويماتسي
المتهافنة . وعبثا انشدها ليلا في فراشي ، عندما يكون حلم بريء قد
خدعني واسعدني بها ، فصورها لي بجواري في الحقول ، وقد امسكت
بيدها وغمرتها بما لا يحصى من القبلات . وعندما التمسها في تيه النوم
وأنا احس انها قريبة مني ، تفيض الدموع من قلبي المعني ، وابكي على
مستقبلي التعس وقد حرمت كل هناء .

٢٢ اغسطس

يا للمصيبة يا قلهم ! فروحي الناشط قد انحل الى حد التراخي .
ولا يسعني ان اكون عاطلا ، ومع هذا لا استطيع ان اشرع في العمل .
ولست استطيع التفكير ، فلم يعد عندي شعور بجمال الطبيعة ، والكتب

غدت بفبضة الي . فمتى تخلينا عن انفسنا ضعنا ضياعا تاما . وكم من مرة تمنيت لو كنت فلاحا عاديا ، كي لا يكون عند استيقاظي في الصباح الا غرض واحد ومسمى واحد وامل واحد لذلك النهار الذي بزغ فجره . وكثيرا ما حسدت البرت عندما اراه غارفا في كومة من الاوراق والاضابير، واتوهم نفسي سعيذا لو كنت في مكانه . وكثيرا ما سيطر علي هذا الشعور حتى لقد هممت مرارا ان اكذب اليك والى الوزير طالبا ذلك المنصب في السعارة الذي يظن انه في مقدوري الحصول عليه . وكان الوزير قد اظهر اهتماما بي ، وكثيرا ما حتي على طلب العمل ، الذي لن يستغرق اكثر من ساعة . وبين الحين والحين تخطر ابي حكاية الجحش الذي سلب عليه حريمه ، فرضي ان يسرج ويلجم . وامطوه حتى مات . والحق انني لا ادري اي فرار اتخذ . افلبس هذا اللهف على الفير نيجة لعلق النفس الذي سوف يلاحقني ايضا في كل مواعيد حبابي .

٢٨ اغسطس

لن كتب لادواني وعلاى الشفاء ، فسينم - يغبنا - شفاؤها هاعنا . فاليوم عيد ميلادي . وفي وقت مبكر من هذا الصباح تلفيت لعافه من البرت . وما ان فتحها حتى وجدت بها واحدا من الاشرطة الوردية التي كانت تمارلون بزن بها نوبها في اول مره وضع فيها نظري عليها . وكتب قد طلبت منها مرارا ان تعطيني اياه . وكان مع هذا الشريط مجلدان بهما طبعة فستناين من "هوميروس" الصغير الحجم ، وكنت قد منيت مرارا الحصول على هذه الطبعة لتفنييني عن مشعة حمل طبعة ارنسنيين الكبيرة الحجم معي في نزهااتي على الاقدام . فهائت ترى كيف يحفان مبادرين الى لبسة امنباني ورغائبي . وكيف يفهمان كل ما تنطلبه الصداقة من اللفات الصغيرة ، وانها لارقي من هدايا العظماء القالية الثمن التي تشعرنسا بالهوان . ولثمت ذلك الشريط الف مره ، وكنت مع كل نفس من انفاسي استنشيق ذكرى تلك الايام السعيدة التي لن تعود ، والتي كانت نفعمني باعمق الحبور ... وهذا قدرنا يا فلهم ! ولست اتدمر منه ، فزاهير الحياة ليست الا رؤى عابرة سريعة الزوال . وما اكثر ما يتلاشى منها ولا يترك وراءه اثرا . وما اقل ما يبقى منها ويغل ثمرة . والثمرة نفسها نادرا ما تنضج ! ومع هذا فما اكثر الازاهير . او ليس غريبا - يسا صديقي - ان ترانا نسمح للقلة التي تنضج حقا من ثمارها ان تتعفن

وتذهب هباء من غير ان نفيد منها متعة ؟
وداعا . فالصيف رائع بهي . وكثيرا ما أتسلق الاشجار في بستان
شارلوت ، وأهز الكمثرى المتعلقة بأعالي أغصانها حتى تسقط ، وشارلوت
واقفة على الارض تحتها ، فتتلففها بيديها .

٣٠ اغسطس

ما اتعسني من مخلوق ! لماذا أغرر بنفسي على هذه الصورة ؟ ماذا عسى
ان تكون حصيلة كل هذه العاطفة الجامحة التي لا هدف لها ولا نهاية ؟ اني
لا استطيع ان أصلي وأنزع الا لها . فخيالي لا يسرى شيئا سواها .
وجميع الاشياء المحيطة بي لا حساب لها الا بمقدار صلتها بها ، وانسي
لاستغرق في هذه الحالة الحائلة ساعات طويلة هنية ، الى ان ارى نفسي
مضطرا الى انتزاع نفسي بعيدا عنها ! فعندما اقضي عدة ساعات فسي
صحبتها ، الى ان احس اني ذبت في هيئتها ، ورشقتها ، وتعبير افكارها
القدسي ، يستثار عقلي ووجداني تدريجا الى غاية ما بعدها غاية ، ويفيم
بصري ، ويضطرب سمعي ، وتتلاحق انفاسي ، وكانما يأخذ قاتل بخناق ،
وينشد قلبي الخفاق الراحة من حواسي المتوجعة . ولا اعني احيانا اموجود
انا ام غير موجود . وما لم اجد في مثل تلك اللحظات تعاطفا ، وما لم
تسمع لي شارلوت بمتعة العزاء الاسيف بفصل يديها بدموعي ، شعرت
بانه لا بد لي من انتزاع نفسي منها ، اما لاضرب على غير هدي في انحاء
الريف ، او لأتسلق حاجزا صخوريا وعرا محفوقا بالخطر ، او لأشق لي
طريقا عنوة بين الاشجار الملتفة حتى لتمزق اثوابي الاشواك البرية ، مندئذ
اجد الراحة . بل اني استلقي احيانا على الارض ، وقد غلبني التعب على
امري ، واكاد اموت ظمأ . وأحيانا ، في ساعة متأخرة من الليل ، والقمر
ساطع من فوق ، ألوذ بشجرة عجوز في غابة منعزلة ، كي اريح اطرافي
المنهكة ، وهناك انام - من فرط الاعياء - حتى طلوع النهار .
ان صومعة الناسك - يا فلهم - وخرقته ، واكليل الشوك ، خليقة
ان تكون ترفا ونعيما بالقياس الى ما اكابده وأعانيه .
وداعا ! فلست ارى نهاية لهذا الشقاء اللهم الا القبر .

٣ سبتمبر

لا بد لي من الابتعاد . شكرا لك - يا فلهم - لانك حسمت لي

حيرتي وترددي . لقد فكرت طيلة اسبوعين في مفادرتها . لا بد لي من الابتعاد والرحيل عنها . وقد عادت الى البلدة ، حيث تقبـم في بيت صديقة لها . ثم هناك البرت - اجل لا بد لي من الذهاب .

١٠ سبتمبر

أوه ، يا لها من ليلة يا فلهم ! وفي وسعي منذ الان ان اتحمل اي شيء . لن اراها بعد الان . من لي بأن اسقط على عنقك ، وافرج عن العواطف التي تببل فؤادي ، بفيض من الدموع والتنهيدات . هانذا لاهناء مكافحا كي اهدى من روعي .. واني لفي انتظار طلوع النهار . فعند انبلاج الصبح ستكون الخيل امام الباب .

اما هي فنائمة بسلام وهدوء ، لا يطوف بخلدتها ان انظارها وقعت علي للمرة الاخيرة . لقد تحررت . وقد واتتني الشجاعة في لقاء دام ساعتين معها الا افشي لها نيتي .. ويا له من حديث ذاك الذي دار بيننا با فلهم !

وكان البرت قد وعد بالحضور لدى شارلوت في الحديقة بعد العشاء مباشرة . وكنت في الشرفة تحت شجرة كستناء عالية ، ارقب الشمس الفاربة ، ورايت الشمس وهي تغوص للمرة الاخيرة وراء ذلك الوادي البديع ، وذلك الجدول الصامت . وكثيرا ما المت مع شارلوت بهذه البقعة نفسها وشهدت معها ذلك المنظر الفخم المجيد ، والان هانذا اذرع جيئة وذهابا ذلك الممشى الاثير عندي ، وكثيرا ما اشرفت على روحي عاطفة خفية هناك قبل ان اعرف شاراوت ، وكم ابهجنا ونحن في فجر تعارفنا عندما اكنشفنا ان كلا منا يحب نفس البقعة ، وهي حقا رومانتيكية كاي بقعة اسرت لب فنان وخياله على وجه الارض

والمنظر تحت اشجار الكستناء فسبح مترام . ولكنني اذكر اني ذكرت لك فيما سبق هذا كله في احد خطاباتي ، ووصفت لك اجمة اشجار الزان العالية في نهايته ، وكيف ان هذا الممشى يزدد عتمة وقنما كلما تعرج مساره فيما بينها ، الى ان ينتهي بمعتكف مظلم له كل مفاتن الوحدة والمزلة . ولم ازل اذكر شعور الاسى القريب الذي دهمني في اول مرة دخلت فيها ذلك المعتكف المظلم ، في وهج الظهيرة . لقد خامرني شعور خفي مبهم بأن هذا المكان سيكون حتما سرجا لسعادة لي او شقاء .

وقد قضيت نصف ساعة نهبا لصراع محتدم بين الذهاب والعودة واذا بي اسمع اصواتهما ، صاعدين الى الشرفة المكشوفة ، فجريت اليهما لاستقبالهما . وارتجفت وأنا اتناول يدها واقبلها . ولما بلغنا قمة الشرفة طلع القمر من وراء التل الذي تكسوه الاشجار . وشجر بيننا الحديث في مختلف الامور ، ودون ان ندري اقتربنا من ذلك المنكف المعتم . ودخلته شارلوت ، ثم جلست على الارض ، وجلس البرت بجوارها . وحذوت حذوهما ، بيد ان اضطرابي لم يسر لي ان اظل جالسا فترة طويلة ، فنهضت قائما ووقفت قبالتها ، ثم تمشيت جيئة وذهابا ، وعدت بعد ذلك الى الجلوس . كنت قلقا تعبسا . ولفنت شارلوت انتباهنا الى ضوء القمر وتأثيره البديع في المنظر ، لانه كان يفضض المرثبات فوق الشرفة قبالتنا من وراء اشجار الزان . والحق ان المنظر كان رائعا فخما ، وزاد مسن روعته وابته ذلك الظلام الذي كان يغمر البقعة التي نحن فيها . وظللنا صامتين بعض الوقت ، واذا بشارلوت تقول :

— كلما سرت في ضوء القمر جلب الى ذاكرتي كل اصدقائي المحبوبين الراحلين ، فتمتلئ نفسي بخواطر الموت والحياة المقبلة .
والتفت نحوي وادفنت :

— لسوف نحيا من جديد مرة اخرى يا فيرتو . ولكن هل سيعرف كل منا الاخر مرة اخرى ؟ ما رأيك في هذا ؟ ما قولك ؟
فقلت لها وأنا اتناول يدها بين يدي ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— شارلوت ! سيري كل منا الاخر مرة اخرى ، هنا . وفيما بعد ، سوف نلتقي .

ولم استطع ان اقول اكثر من هذا . فلماذا — يا فلهم — تلقي علي هذا السؤال بالضبط في اللحظة التي كان خوف تفرقنا القاسي يغمس قوادي ؟

فالت شارلوت :

— وهل يعرف هؤلاء الاعزاء الراحلون كيف نقضي اوقاتنا هاهنا ؟ هل حقا يعرفون متى يكون بخير وسعادة ؟ ايعرفون متى نذكركم بكل حب واعزاز ؟ ان شبح امي يطيف بي ، ويحوم حولي ، في ساعات المساء الساكنة ، وأنا جالسة بين اطفالي ، اراهم متجمعين بقربي كما تعودوا التجمع بقرىها ، وعندئذ ارفع عيني القلقتين اللهفانتين الى السماء ، وأتمنى ان تكون امي ناظرة من عل الينا ، لترى كيف أبر بالوعد السدي

قطعته على نفسي لها في لحظاتها الاخيرة ، ان اكون اما لاطفالها . وبكل حرارة مشاعري اهتف بها عندئذ : «عفوك يا اعز الامهات وغفرانك ان كنت لا املأ الفراغ الذي تركته كما ينبغي ! والاسفاه ! اني لأبذل غاية جهدي .

فها هم كاسون طاعمون ، بل افضل من هذا كله انهم ها هم موضع الحب والرعاية والتربية الصالحة . الا ليتك - ايها القديسة العذبة الروح - ترين السلام والتناغم اللذين يغمرانا ، لكنت اذن خليقة ان تمجدي الرب بكل مشاعر العرفان والشكر ، ذلك الرب الذي تضرعت اليه في ساعاتك الاخيرة ان يكلنا ويسعدنا» .

أجل ، هكذا يا فلهم قالت شارلوت ، ولكن من ذا الذي يستطيع ان يصور لك طريقة كلامها ، والروح السماوي الذي شع منها وهي تقول هذه الكلمات التي انقلها لك على الورق باردة هامة .

وقاطعها البرت بلطف قائلا :

— ان هذا كله يؤثر فيك تأثيرا اعمق مما ينبغي يا عزيزتي شارلوت .

وانا اعلم ان روحك تطيف بها مثل هذه الذكريات البديعة ولكني اتوسل اليك ...

فقاطعته قائلة :

— اوه يا البرت ! اني واثقة بانك لا تنسى تلك الامسيات التي تعودنا ان نقضيها نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة المستديرة ، عندما يكون والدي متغيبا ، وقد اوى الصغار الى فراشهم . وكثيرا ما يكون معك كتاب جيد ، الا انك قلما تطالع فيه ، لان حديث تلك المخلوقة النبيلة كان مفضلا على كل شيء ... تلك المرأة الجميلة ، المشرقة ، الذكية ، اللطيفة ، التي لا تكف عن العمل والكدح رغم كل شيء . والله وحده يعلم كم اغرقت فراشي في الليل بالدموع وأنا ابتهل اليه ان أشب فأكون مثلها !

فالقيت نفسي عند قدميها ، وامسكت بيدها ، واغرقتها بدموعي هاتفا :

— شارلوت ! ان نعمة الله وروح امك يباركانك !

فقلت ، وهي تضغط يدي ضغطا رقيقا :

— آه لو كنت رأيتها ! لقد كانت جديرة بان تعرفها .

وأحسب انني كنت على وشك الاغماء ، لانني لم اتلق في حياتي ثناء كهذا ، واردفت هي قائلة :

— ومع هذا كان مقضيا ان تموت وهي في زهرة عمرها ، عندما كانت طفلتها الصغرى لا تتجاوز الشهور الستة . وكان مرضها قصير الامد ،

بيد انها كانت هادئة ومستسلمة ، ولم تشعر بالشقاء الا من اجل اطفالها فحسب ، ولاسيما اصغرهم . وعندما دنا اجلها ، امرتني ان احضرهم اليها ، فأطعتها . وكان الاحدث سنا من بينهم لا يعرفون شيئا عن خسارتهم الفادحة الوحشية ، اما الاكبر سنا فكان الحزن مستوليا عليهم وقد غلبهم على امرهم ، وكان الجميع وفوا حول سريرها ، ورفعت يديها الواهنتين نحو السماء ودعت لهم وتضرعت من اجلهم ، ثم قبلتهم الواحد تلو الآخر ، وقالت لي : «كوني اما لهم» . فأعطيتهما يدي ، فقالت : «لقد اخذت على عاتقك النسيء الكثير يا ابنتي : انه حنان الام ورعايتها ما تعدين به ! ولقد شهدت مرارا كثيرة من دموعك وعرفانك انك تدرين ما حنان الام ، فاظهري هذا لاختوك واخواتك . وكوني عند واجباتك واخلاصك وامانتك لابيک ، كما لو كنت زوجته ، فستكونين انت مصدر راحته وعزائه» . وسألت عنه ، وكان قد اعتكف ليخفي عنا اله الممض ، ففد كان محطم القلب . ولقد كنت انت يا البرت في الحجرة ، وسمعت هي صوت حركة ، فسألت من هذا ، وطلبت ان تدنو منها . وراحت تفحصنا نحن الاثنين بنظرة تفيض رضا وطمأنينة ، اعرابا عن ايمانها باننا سنكون سعيدين معا .

وعندئذ وقع البرت على عنقها وقبلها هاتفا :

— واننا لكذلك ! وسنكون دائما كذلك !

فالبرت نفسه ، الهاديء غالبا ، اهتز لقولها . اما انا فبلغ اضطرابي غاية ليست بعدها غاية . واستطردت هي :

— وهكذا كان على مثل هذه المخلوقة ان تفارقنا . الا قل لي يا فيرتز :

هل كتب علينا — يا الهي ! — ان نفارق كل ما هو عزيز لدينا في هذه الدنيا ؟ ما من احد شعر بهذا الفقد كما شعر به الاطفال ، فقد بكوا وأعولوا امدا طويلا بعد ذلك ، لان رجلا داكني الوجوه حملوا امهم الغالية بعيدا .

ونهضت شارلوت من مكانها ، فنبهني ذلك ، ولكني بقيت جالسا ، وامسكت بيدها ، فقالت :

— فلننصرف . فقد تأخر الوقت .

وحاولت ان تسحب يدها . ولكني أبقيتها في يدي وهتفت :

— لسوف يرى كل منا الاخر مرة اخرى . ولسوف يتعرف كل منا على الاخر بالغا ما بلغ التغير الذي يعترينا . وانسا الان ذاهب ، ذاهب

بمحض اختياري ، ولكنني ان قلت وداعا الى الابد ، فقد لا اكون عند
قولي هذا . وداعا يا شارلوت . وداعا يا البرت . ولسوف نلتقي
مرة أخرى .

فاجبتني باسمه :

— نعم . . نلتقي غدا فيما اعتقد .

غدا ؟ ما كان أعجب وقع هذه الكلمة علي ! آه ! انها لم تكن تعرف
الحقيقة عندما سحبت يدها من يدي . وسارا معا هابطين الممشى ،
ووقفت احديق في اثرهما في ضوء القمر . والقيت بنفسي على الارض
وبكيت . ثم وثبت واقفا ، وجريت فوق الشرفة المكشوفة ، وابصرت تحت
ظلال اشجار الزيزفون ثوبها الابيض يختفي قرب بوابة الحديقة . ومددت
ذراعي نحوها .

وتلاشت من ناظري .

الكتاب الشافي

٢٠ أكتوبر

وصلنا الى هنا بالامس . والسفير متوعلك الصحة ، ولن يخرج الا بعد مرور بضعة ايام . ولو كان اقل شكاسة وانقباض لكان كل شيء على ما يرام . واني لأرى بوضوح ان السماء كتبت علي ان أمر بعن جسام ، بيد ان الشجاعة وخفة القلب قد تتحملان اي شيء . خفة القلب ! انسي لابتسم اذ اجد مثل هذه الكلمة تصدر عن قلبي . فأيسر المزيد من خفة القلب عسية ان تجعلني أسعد مخلوق تحت الشمس . ولكن هل لي ان أقنط من مواهبي ، فسي حين ان آخرين ممن هم أقل مواهب مني بكثير جدا يتمخطرون امام ناظري بأقصى ما يمكن من الرضا عن انفسهم ؟ ايها الحكاية الصمدانية ! يا من ادين لها بكل قواي وقدراتي ، لماذا لا تحتجزني عني بعض النعم التي أسبغتها علي ، لتمنحيني عوضا عنها شعورا بالثقة بالنفس والرضا ؟

ولكن صبرا ! فلم يزل من الممكن ان يفقدو كل شيء على ما يرام ، فاني أوكد لك ، يا صديقي العزيز ، انك كنت على حق . فمئذ اضطررت اضطرارا ان أخالط الآخرين باستمرار ، والاحظ ما يصنعون ، وكيف يشغلون وقتهم ويستخدمون قدراتهم ، وأنا أشعر بمزيد من الرضا عن

نفسى . فنحن بمقتضى تكويننا الطبيعي ميالون دوما الى مقارنة انفسنا بالآخرين ، وسعادتنا او شقاؤنا يتوقفان كثيرا جدا على الاشياء والاشخاص المحدقين بنا . ولهذا السبب فليس هناك ما هو أخطر من الوحدة او العزلة . ففيها تكون مخيلتنا متأهبة دوما للنهوض والانبراء محقة على جناحي الوهم - عرضة لتطوير الآخرين وكاننا في وسطهم ادنى المخلوقات طرا . فجميع الاشياء تبدو اعظم مما هي في الحقيقة ، ولذا تلوح لنا ارقى واسمى . وهذا العمل من جانب النفس طبيعي جدا ، فنحن نشعر دائما بنقصنا ، ونتهم اننا ندرک في الآخرين الملكات والصفات التي ليست لنا ، فنعزو اليهم ايضا كل ما نستمتع به ، وبهذا الاسلوب نكون فكرة الانسان الكامل السعيد : وهو انسان لا وجود له، هذا الا في خيالنا نحن . اما عندما نتصرف - برغم الضعف وخيبة الامال - الى العمل الجاد، ونثابر عليه بثبات ، فكثيرا ما نجد اننا - مهما غيرنا مسارنا - نعمن في التقدم اكثر من الآخرين الذين تساعدهم الرياح وحرب المد ، والواقع انه لا يمكن ان يكون هناك رضا اكبر من مسابقة خطوات الآخرين ، او التقدم عليهم في مضمار السباق .

٢٦ نوفمبر

بدات ارى وضعي هنا اكثر احتمالا ، اذا اخذنا في الاعتبار جميع الظروف وانى اجد فائدة جمعة في كثرة شواغلي . كما ان كثرة عسدد الاشخاص الذين اقابلهم ، واختلاف مساعيهم ومقاصدهم ، يستحدث لي تسليمة متنوعة .

وقد تعرفت على الكونت س... ويزداد تقديري له يوما بعد يوم . فهو رجل قوي العقل عظيم التمييز ، ولكنه وان كان ابعد نظرا من سائر الناس الا انه لا ينجح بسبب ذلك الى برود الطبع او الاسلوب ، بل هو خليق ان يلهم المرء آخر مشاعر المودة ومستعد لتلقيها . وقد ابدى اهتماما بي في احدى المناسبات عندما احتجت الى تصريف بعض الاعمال معه ، فقد ادرك ، منذ الكلمة الاولى ، ان كلا منا يفهم الآخر ، وان في مقدوره ان يتحدث الي بلهجة غير التي يستخدمها مع الآخرين . ولن استطيع ان افيه حتى من تقدير صراحته ورقته معي . وانها لاعظم وأصدق بهجة لي ان ارقب عقلا كبيرا بينه وبين عقلي تماطف .

لقد صدق ما توقعته ، فهذا هو السفير يسبب لي ضيقا لا حد له . فهو أشد قدم تحت السماء دقة وتديقا : يؤدي كل شيء خطوة بخطوة ، بكل ما تنسم به المرأة العجوز من تزمّت في الدقة . فهو رجل يستحيل على أي إنسان أن يرضيه ، لأنه لا يرضى عن نفسه أبدا . وأنا أحب أن أؤدي الأعمال بانتظام ومرح ، وهتي فرغت من عمل نحيته جانبا . اما هو فيعيد باستمرار اوراقه قائلا :

— انها لا بأس بها ، ولكنني أوصيك أن تعيد النظر فيها مرة أخرى ، لأن المرء يستطيع دائما أن يحسن فيها باستخدام لفظ أفضل ، أو ظرف أو حال أو حرف أنسب لمقتضى الحال .

وعندئذ أقعد صبري كله ، وأتعمى لو يخطفني الشيطان . فهو يريد حذف حرف جر أو حال . وهو يبغض كل أنواع التعديلات التي لسدي غرام بها . وأذا كانت أنغام عصرنا غير مضبوطة على الإنتاج الرسمي ، فلن يفهم المعنى الذي نرمي اليه . وأنه لمن تكدر الطالع أن تكون على صلة بمثله .

ومعرفتي بالكونت س هي التعويض الوحيد عن مثل هذا الخلاء . وقد قال لي منذ أيام بصراحة انه شديد الاستياء للمصاعب والتعطيل التي تصدر عن السفير . وأن أمثاله عقبات أمام انفسهم وأمام الآخرين على السواء ، وأردف ذلك بقوله :

— ولكن على المرء أن يدعن ويتحمل ، شأنه شأن المسافر الذي ينبغي عليه أن يصعد جبلا ، فلو لم يكن الجبل حيث هو ، لكان الطريق أقصر والطف وأيسر ، ولكنه موجود حيث هو ، ولا بد للمسافر أن يعبره . ويدرك ذلك الشيخ (السفير) انعطاف الكونت نحوي وتحيزه لسبي ، فيضيق بذلك ، وينتهز كل فرصة للنيل من الكونت على مسمع مني . ومن الطبيعي أنني أذافع عنه ، وذلك ما يجعل الأمور أسوأ مما هي . وبالإمساك أثار استنكاري ، لأنه عرض بي أيضا بنبرة قائلا :

— أن الكونت رجل دنيا ومجتمع ، ورجل أعمال جيد ، وأسلوبه أيضا جيد ، وينساب في الكتابة بسهولة ، ولكنه — شأن كل عبقرى — لبيم يحفظ بتعليم متين .

ونظر نحوي وعلى وجهه تعبير كأنه يريد أن يعرف هل شعرت باللطفة التي تلقيتها أم لا ، ولكنها لطمة لم تحدث الاثر المرغوب فيه . . . لانسي

احتقر الشخص الذي يمكن ان يفكر ويتصرف على هذا النحو . ومع هذا تصدّيت له ، ورددت عليه بالشيء غير اليسير من الحرارة ، فقلت له ان الكونت رجل اهل لكل احترام بسند من طبعه وخلقه ، وبسند مسن صفاته المكتسبة وعلمه ايضا . وانني لم الق في حياتي كلها مثيلا له في احتشاد عقل بالمعرفة النافعة المتعددة الجوانب . وفي امتلاك ناحية كل هذه الموضوعات المتباينة التي يحسنها فعلا ، ومع هذا يخصص نشاطه كله لتفصيلات العمل العادي .

فكان هذا الذي قلته مجاوزا لطريقته في الفهم ، واستأذنت فسي الانصراف حتى لا تثور اثارة غضبي بسخافة اخرى من سخافاته . وانت اللوم على هذا كله ، لانك انت الذي اقنعتني ان احني عنقي لاضع عليه هذا النير ، بكثرة ما وعظمتني وبشرتني بحياة العمل والنشاط . فلئن لم يكن من يستنبط الخضر ويحمل غلاله الى المدينة في ايام السوق خيرا مني استخداما ومشغلة لوقته ، فانا مستعد ان اعمل عشر سنوات اخرى في هذه السخرة التي ارى نفسي مكبلا اليوم باغلالها .

يا للتعاسة ، والاعياء ، اللذين يعنى المرء بشهودهما بين ظهرائي اولئك البلهاء الذين يلقاهم المرء في المجتمع هاهنا ! ويا لطموح الكنايسة والمنصب ! وما اكثر ما يترصدون ويتربصون ويكدحون للوصول السى الخطوة والترقي ! ويا للعواطف الهزيلة المزدرة التي تتراعى لنا هنا عارية لا يسترها شيء ! فلدينا ها هنا امرأة - مثلا - لا تكف عن تسليسة الجمع بحكايات وحكايات عن عائلتها وضياعها . والغريب خليف ان يعدها مخلوقة بلهاء ، ادار رأسها ادعاء المكانة والجاه والثراء ، بيد انها فسي الحقيقة اسخف منها وادعى للضحك منها : فان هي الا ابنة كاتب الحكمة من اهل هذه الناحية . ولست ادري كيف يمكن للكائنات البشرية ان تحط من ذاتها الى هذا الحد .

واني لالاحظ في كل يوم مزيدا بعد المزيد من حماقة الحكم على الآخرين قياسا على انفسنا . واجد هنا مشقة عظيمة جدا مع نفسي ، وقلبي في حالة اضطراب مستمرة ، حتى انني راض تماما وقانع بان ندع الآخرين يواصلون مساعيهم ، وحسبهم ان يتركوا لي ممارسة مثل هذا الحق . وما يثيرني اكثر من اي شيء هو المدى التمس الذي تصل اليه التمييزات بين الاقدار والراتب . واني لاعرف تمام المعرفة مبلغ لزوم وحمية الفروق بين الاوضاع ، وعدم التساوي فيها ، واقدر تماما تلك الزايا والحقوق التي استمدها شخصا من هذا المبدأ ، ولكني لا اطبق ان

تتحول هذه المؤسسات الى حواجز وسدود امام الفرصة اليسيرة من فرص السعادة التي يمكن ان احظى بها على وجه هذه الدنيا .
وقد تعرفت اخيرا بالانسة ب... وهي فتاة لطيفة جدا ، استطاعت ان تحتفظ بروحها واساليبها الطبيعية الفطرية وسط هذه الحياة المصطنعة .
وقد سررنا كلانا بهذا الحديث الاول الذي جرى فيما بيننا ، فطلبت اليها عند الانصراف ان تاذن لي في زيارتها ، فوافقت بأسلوب لطيف ورقيق جدا ، حتى انني انتظرت حلول هذه اللحظة السعيدة بصبر نافذ . وهي ليست من مواليد هذه البقعة ، بل تقيم هنا مع عمّة لها . ولكن سحنة هذه العمّة لا تأسر القلب . وقد وجهت لها الكثير من اهتمامي، وخصصتها بمعظم الحديث ، وبعد اقل من نصف ساعة اكتشفت ما أخبرني به ابنة اخيها بعد ذلك ، من ان عمّتها العجوز لا تملك الا ثروة صغيرة ، ونصيبا اصغر من هذا ايضا من الفهم والادراك ، ولذا فهي لا تستشعر شيئا من السرور او الاهتمام الا بشجرة انساب اسلافها ، ولا تجد حماية او امنا الا في مولدها النبيل ، ولا متعة الا في اشراف من ذرى قلعها على رعوس المواطنين الوضعاء . وما من شك في انها كانت وسيمة في شبابها، ولعلها في مقتبل عمرها كانت تزجي وقتها بارضاء نزواتها لاهية بقلوب وحواس الكثيرين من الشبان المساكين ، فلما نضج سنّها اذعنت لئسير ضابط من المحاربين القدماء ، الذي رد لها منحة من شخصها واستقلالها اليسير في صورة مشاركته اياها ما يمكن ان نسميه عصرها النحاسي .
وقد مات عنها ، فهي اليوم ارملة مهجورة منعزلة ، تقضي عصرها الحديدي بمفردها ، ولا تريد ان يدنو منها احد ، ولا يريد احد ان يقربها ، اللهم الا لاجل ملاحظة ابنة اخيها .

٨ يناير ١٧٧٢

اي نوع هذا الذي ينتمي اليه اولئك الرجال الذين يشغلون تفكيرهم بالشكليات والمراسم ، ويقضون سنين مخصصين جهودهم العقلية والبدنية لتحقيق هدف واحد ، هو التقدم في ذلك المسار خطوة واحدة ، ومكافحين لا لشيء الا لكي يشغلوا على المائدة مكانا اعلى مما كانوا فيه ، وليس هذا عن خلو من الشواغل عدا هذا ، بل هم على العكس يجشمون انفسهم كثيرا عناء باهمالهم العمل المهم في سبيل هذه التفاهات . ففي الاسبوع الماضي ثارت مسألة تتعلق بالاسبقية في حفل انزلاق ، مما ادى

الى افساد متعتنا بأسرها .

فهذه المخلوقات البلهاء لا تستطيع ان ترى ان المكان ليس هو الذي ينبغي العظمة الحقيقية ، وأن من يشغل المكان الاول ليس - اللهم الا نادرا - هو الذي يقوم بالدور الرئيسي . فكم من ملك يحكمه وزراؤه ، وكم من وزراء يحكمهم سكرتيرهم ؟ ومن في هذه الحالة هو الرئيس الحقيقي ؟ انه - في نظري - من يستطيع ان ينفذ ببصيرته الى حقيقة الآخرين ، ولديه من القوة او البراعة ما يجعل قوتهم او أهواءهم في مقدمة ما يريد تنفيذه من اهدافه شخصيا .

٢٠ يناير

كان لا بد لي ان اكتب اليك يا عزيزتي شارلوت من هذا المكان ، من حجرة صغيرة في خان ريفي ، حيث اعتصمت لائذا بها من عاصفة هوجاء . ففي مدة اقامتي كلها بذلك المكان التمس (د) ، حيث سكنت بين غرباء - غرباء حقا عن هذا القلب - لم أشعر في اي وقت بأقل ميل للتراسل معك . اما وأنا في هذا الكوخ ، في هذا المعتكف ، في هذه العزلة ، مع الجليلد ، والريح تضرب مصراع نافذتي ، فانت اول من فكرت فيه ، فمئذ دخلت هذا المكان وصورتك ماثلة امام خاطري ، بكل الذكرى - وانها يا شارلوت، لذكرى مقدسة غاية في الرقة ! ابتها السماء الرحيمة المنعمة ! اعيدي لي تلك اللحظة السعيدة ، لحظة لقائنا في باكورة تعارفنا ! الا ليتك تريني - يا عزيزتي - وسط دوامة هذا التشتت . فقد جفت ينابيع حواسي وذهنِي ، ولكن قلبي لم يستطع شيء في اي وقت ان يملأه . ولا احظى بأي لحظة من لحظات السعادة ، فكل شيء باطل الإباطيل ، الكل باطل . ما من شيء يحركني وكأني واقف امام أصنام للأعيب (الأرجواز) : ارى الدمى الصغيرة تتحرك ، واتساءل أليس ما ارى محض وهم وخداع نظر . واني لأتسلى بهذه الدمى ، ولكني بالأصح انا دمية من بينها ، ولكنني عندما أمسك احيانا بيد جاري أحسها غير طبيعية ، واسحب يدي وأنا ارتجف ، وفي المساء اقول «ل سوف استمتع بشروق شمس الغد» ، ومع هذا اظل مستلقيا في فراشي ، وفي النهار آلي على نفسي ان أتجول في ضسوء القمر ، بيد انه اذا حل المساء اظل في عقر داري . ولا ادري لماذا اصحو ولا لماذا اتام . ان «الخميرة» التي كانت تبث الحياة في وجودي قد ذهبت والظلم الذي كان يبهجنني في وجوم الليل . ويوقظني من كرى الصباح قد

قرب مني الى الابد .

وقد وجدت مخلوقا واحدا هنا يثير اهتمامي ، وهو الانسة ب. وهي تشبهك يا عزيزتي شارلوت ، ان كان من الممكن أن يشبهك احد لا أعلم انك ستقرلين :

— آه ! لقد عرف اخيرا كيف يزجي عبارات المجاملة الرقيقة :

وهذا صحيح الى حد ما . فقد رضت نفسي على ان اكون لطيف المعشر مؤخرا ، لانه لم يكن في وسمي ان اصنع غير هذا . وصار عندي انكثير من حضور البديهة ، وتقول السيدات انه لا مثيل لي في فهم الاطراء . وارك ستقولين الريف والبهتان ، لان هذه تكلل ذلك . ولكن لا بد لي ان احدثك عن الانسة ب... ان لها روحا ذكيا يكاد يطفو من وميض عينيها الداكني الزرق . ومكانتها مصدر عذاب لها ، ولا ترضي رغبة واحدة من رغبات فؤادها . وهي مستعدة ان تنسحب طواعية من دوامة المظاهر ، وكثيرا ما تصور لنفسينا حياة من السعادة الصانيسة وسط مشاهد العزلة في أعماق الريف ، ثم تتحدث عنك يا عزيزتي شارلوت ، لانها تعرفك ، وتكن التقدير لسجاياك ، وهو تقدير غير مفتعل ، بل يصدر عنها طواعية . انها تحبك ويسرها ان تكونسي موضوع الحديث بيننا .

الا ليتني جالس عند قدميك في حجرتك الصغيرة المفضلة ، والاطفال الاعزاء يلهون من حولنا ! واذا ما ازعجوك ، قصصت انا عليهم حكاية مروعة من حكايات الجن ، فيتخلقونني بانتباه صامت . ها هي الشمس تغرب في جلال ، وأشعتها الاخيرة تسطع على الثلج الذي يغطي وجه الريف . لقد سكنت العاصفة ، ولا بد لي من العودة الى ايماني . وداعا ! هل البرت معك ؟ وكيف حاله معك ؟
غفر الله لي هذا السؤال ؟

٨ فبراير

منيت طيلة الاسبوع الماضي بأسوا طقس ، بيد ان هذا كان نعمة علي وبركة . فطيلة مقامي ها هنا لم تجد السماء بيوم معتدل الجو ساطع الشمس الا وضاع علي هذا اليوم بتطفل شخص ما . اما مع اشتداد المطر، والريج الصرصر ، والجليد ، والعاصفة ، فاني أغبط نفسي بان الجو في الداخل لا يمكن ان يكون اسوا منه في الخارج ، ولا هو في الخارج يمكن

ان يكون اسوا منه داخل الجدران ، وبذلك ارضى بالامر الواقع . فاذا ما
اشرفت الشمس في الصباح واعدة بيوم رائع ، فلا يفوتني ان اهتف :
- الان وقد حلت بركة اخرى من السماء ، فلن يفوتهم ان يفسدوها ،
على دابهم في افساد كل شيء ، من صحة وشهرة وسعادة وسرور ، وهم
غالبا ما يرتكبون ذلك عن حماقة او جهل او بلاهة ، وهم يحسبون انهم
صادرون عن افضل النيات !
واكاد في كثير من الاحيان اتوسل راكعا على ركبتي ، ان يكونوا اقل
تصميما على تدمير انفسهم .

١٧ فبراير

اخشى انني لن استطيع الاستمرار طويلا مع سفيري هذا ، فقد اوشك
ان يتجاوز كل طاقات الاحتمال . فهو يصرف عمله بأسلوب سخيف جدا ،
حتى انني كثيرا ما اضطر الى مناقضته ، منجزا الامور على طريقتي
الخاصة . ومن الطبيعي بعد ذلك ان يراها تمت بصورة غاية في السوء .
وقد شكاني اخيرا لهذا السبب لدى البلاط ، ووجه الوزير الي اللوم . . .
وكان اللوم مخففا جدا في الحقيقة ، ولكنه لوم على كل حال . ونتيجة
لهذا كنت على وشك ان اقدم استقالتي ، واذا بي اتلقى خطابا اذعنت له
بكل احترام ، اعتمادا على الروح السامي النبيل الكريم الذي املاه . وقد
حاول مرسله ان يلطف حساسيتي المفرطة ، واعرب لي عن تقديره لافكاري
الرفيعة عن الواجب ، والقذوة الصالحة ، والمثابرة على العمل ، على
اعتبار ان هذه كلها من ثمرات حماسة شبابي ، وقال ان تلك الحماسة
باعث قوي لا يجب ان يقضي عليه ، ولكنه يوصيني بتلطيفه ، لينفصح امامه
مجال العمل المثمر لكل خير . وهأنذا مستريح البال لمدة اسبوع اخر ،
ولا اعاني من الشقاق مع نفسي . ان الرضا وراحة البال من اضمن الامور .
ولكم كنت اتمنى ايها الصديق العزيز لو كانت هذه الجواهر الغوالي اذوم
بقاء واقل عرضة للزوال .

٢٠ فبراير

بارك الله فيكم يا صديقي العزيزين ، وافاء عليكم السعادة والهناء
للذين اباهما علي !

وأشكرك يا البرت لانك خدعتني . فقد ظلت أنتظر نياً تحديداً يوم قرانكما ، وكنت انوي في ذلك اليوم ، ان اقوم بكل الجد بانزال صورة شارلوت الجانبية عن الحائط ، وأن أواربها مع بعض الاوراق الاخرى التي في حوزتي . ولكن ها انتما الان قربانان ، متحيدان بالزواج ، وصورتها لم تزل ها هنا . ليكن ، ولتبق اذن حيث هي ! ولم لا ؟ فانا أعلم اني لم ازل احد اعضاء مجتمعكما ، وانني لم ازل أشغل مكانا لا يمس في قلب شارلوت ، بل انني احتل فيه المكان الثاني ، وأنا انتوي الاحتفاظ لنفسني بهذا المكان . واني لقمين ان اجن لو انها نسيته . الا ان هذه الفكرة بمثابة الجحيم لي يا البرت ! وداعا يا البرت . وداعا يا مسلاك السماء . وداعا يا شارلوت !

١٥ مارس

لقد حدث لي امر مؤسف ، سيبعدني حتما عن هذا المكان . لقد عيل صبري ! انه الموت ! ولا سبيل الى اصلاح ما وقع ، وأنت وحدك الموم ، لانك أنت الذي حثتني وارغمتني على شغل هذا المنصب الذي لم اكن سهياً له بحال من الاحوال .

ولكي لا تعزو مرة اخرى هذه القارعة الى حدة مزاجي المندفع الطائش ، أبحث اليك - يا سيدي العزيز - بسرد بسيط خال من التزييق للمسألة برمتها ، كما لو كان مؤرخ من مؤرخي الوقائع هو الذي يصفها لك . ان الكونت او... يستلطفني ويقدرني . هذا امر معروف جيداً ، وقد ذكرت هذا لك مائة مرة . وقد تغدبت معه بالامس ، وهو اليوم الذي تعود فيه النبلاء ان يجتمعوا ببيته في المساء . ولم تخطر لي هذه الجمعية ببال من قبل ، ولا خطر لي اننا - نحن الاصاغر او المرءوسين - لا ننتمي الى هذا المجتمع . لقد تعشيت اذن مع الكونت ، وبعد الفداء انتقلنا الى البهو الكبير . وتمشينا جيئةً وذهاباً معا ، وتحدثت معه ، ومع الكولونيل ب... ، الذي انضم الينا . وعلى هذا النحو اقتربت ساعة الاجتماع . والله يشهد انني لم اكن أفكر في شيء ، واذا بمن يدخل ؟ الليدي س... ، يصحبها زوجها النبيل ، وابنتهما البلهاء الماكرة ، بخصرها الصغير وعنقها المسطح ، وعبروا بجواري في غطرسة ، وهم يرمونني بنظرات الازدراء . ولما كنت من أعماق فؤادي أبغض السلالة كلها ، لذا قررت ان أنصرف ، ولم أنتظر الا ريثما تخلص الكونت من

ترثرتهم الوقحة كي استاذنه في الانصراف ، واذا بالانسة ب. اللطيفة المعثر تدخل القاعة . ولما كنت لا القاها الا وشعرت بسرور قلبي ، لهذا بقيت وتحدثت اليها ، متكئا على مقعدها ، ولم أشعر - الا بعد مرور فترة من الوقت - انها مرتبكة ، حتى قد كفت عن الرد علي بأسلوبها الطلق المعهود منها ، فادهشني هذا وصدمني ، وقلت ان نفسي :

- يا اله السماء ! ايمن ان تكون هي ايضا كالاخرين ؟

وشعرت بالضيق ، وكنت على وشك الانسحاب من القاعة ، ولكنني بقيت مع هذا ، متمحلا المعاذير لسلوكها معي ، متوهما انها لم تكن تقصد ما بدر منها ، ولم تزل تخامرني الامال في تلقي ما يدل على مودتها وتقديرها . وعندئذ وصلت بقية الجماعة . وكان فيهم البارون ف . في حلة كاملة ترجع الى حفل تنويع فرنسيس الاول ، والمستشار ن. ، ومعه زوجته الصماء ، و ا. الزري اللس ، الذي تحمل سترته القديمة الطراز آثار اصلاح حديث ، وبه اختتم الجمع . وتحدث مع بعض معارفي ، ولكنهم كانوا يجيبونني في اقتضاب . وكنت مشغولا بملاحظة الانسة ب ، ولم لاحظ ان النساء كن يتهايمن في اقصى القاعة ، كانت تخاطب الكونت بكثير من الحرارة (وكل هذا روته لي فيما بعد الانسة ب.) الى ان تحرك الكونت في النهاية واقبل نحوي ، وانتحي بي جانبا في الشرفة وقال لي :

- انت تعلم ما هي عادتنا السخيفة ، وقد لاحظت ان الجماعة هنا مستاءة من وجودك هنا . وما كنت شخصا ، لاي سبب من الاسباب . . فهتفت به :

- عفوك يا صاحب السعادة ! كان ينبغي علي ان افكر في هذا الامر من قبل ، ولكنني واثق بانكم ستغفرون لي هذا السهو اليسير ، وقد كنت على وشك الانصراف على كل حال منذ برهة ، ولكن سوء طالعي هو الذي استبقاني .

وابتسمت ثم انحنيت ايلانا بالانصراف ، فشد على يدي بأسلوب عبر عن كل شيء ، وأسرعت انا بمفاداة الجمع الموقر ، ووثبت الى عربة ، وركبتها الى م. ووقفت انامل الشمس الفاربة من قمة التل ، وقرأت تلك الفقرة الجميلة من هوميروس التي يصف فيها اكرام الرعاة وفادة «اوليس» . وكانت فكرة بدعة حقا .

وعدت الى بيتي لاتعشى في المساء ، ولكن بضعة اشخاص كانوا مجتمعين في الحجرة ، وقد قلبوا ركننا من اركان غطاء المائدة ، وراحوا

يلعبون الزهر ودخل ا . الطيب القلب ، فوضع قبعته عندما رأني واقترب مني . وقال بصوت خفيض :

— لقد وقع لك حادث مؤسف اليوم .

فهمت :

— انا ؟!

— لقد ارغمك الكونت على الانصراف من الجمعية .

فقلت :

— الا فليخطف الشيطان الجمعية ! لقد سرنني كثيرا ان أنصرف منها .

فقال :

— اني لسعيد ان اراك تأخذ الامر بهذه الخفة ، وكل ما هناك انني آسف لك ، لان الموضوع كثر حوله الكلام فعلا .

وعندئذ بدأت المسألة تؤلني ، وتوهمت ان كل من جلس ونظر نحوي ولو مرة واحدة انما كان يفكر في هذا الحادث ، وشاعت المارة فسي فؤادي .

وفي هذه اللحظة كنت خليقا ان اغرس خنجرا في صدري ، لشعوري ان كل امريء برئي لحالي ، وتصوري مبلغ انتصار اعدائي الذين يقولون ان هذا دائما هو حال المغرورين ، الذين يدبر الزهو رءوسهم فيصطنعون احتقار الشكليات ، وما الى ذلك من سفاسف الامور .

ولك ان تقول ما تشاء عن التجلد ، ولكن ارني الانسان الذي يستطيع ان يتحمل في صبر ضحكات البلهاء ، وقد تمكنوا منه . ولا يسع المرء ان يتحمل ضحكاتهم بلا تدمير ، الا عندما تكون على غير اساس .

١٦ مارس

كل شيء يتآمر ضدي . فالיום قابلت الانسة ب . وهي تتنزه على الاقدام . ولم أملك نفسي من الانضمام اليها ، ولما صرنا على مبعدة معقولة من ريفقاتها ، اعربت لها عن شعوري بتغير احوالها معي ، فقالت بلهجة تشي بالانفعال :

— اي فيرتر ! كيف تسنى لك — وانت تعرف قلبي — ان تسيء تاويل ما خامرني من كرب ؟ فما كان اشد ما اعانيه لاجلك منذ لحظة دخولك القاعة ! وقد توقعت ما حدث برمته ، وكنت مائة مرة على وشك ان اذكره لك . فقد كنت أعلم ان آل س ، وآل ت . خليقون ان يفضلوا

مفادرة الحجرة على البقاء بها في صحبتك . وكنت أعلم ان الكونت لا يمكن ان يفضيهم او يقطع صلته بهم . والان قد كثر الكلام جدا في هذا الشأن .
فهتفت بها :

- كيف ؟

وحاولت ان اخفي انفعالي ، لان كل ما كان «أدلين» قد ذكره لي بالامس ارتد الى ذهني ارتدادا اليما في تلك اللحظة . فقالت تلك الفتاة الودود ، وقد اغرورقت عينها بالدموع ، فلم أكد أتمالك نفسي ،
واوشكت ان القي بنفسي عند قدميها :

- ما أشد ما كلفني هذه الحادثة المؤسفة حتى الان !

فصحت :

- وضحي كلامك !

وانهمرت الدموع على خديها ، فكدت اجن ، ومسحت هي دموعها وهي لا تحاول اخفاءها وقالت :

- انت تعرف عمتي ، وكانت حاضرة ، ولك ان تتصور في اي ضوء نظرت الى هذه المسألة ! فامس مساء ، وهذا الصباح ايضا يا فيرتر اجبرت على الاصغاء لمحاضرة عن معرفتي بك . واضطرت ان اسمع ادانك والخط من قدرك ، ولم استطع - لم اجرؤ - ان اقول الكثير دفاعا عنك .

وكانت كل كلمة تخرج من فمها بمثابة خنجر غاص في قلبي . ولسم تشعر بمدى وصمتها لو انها اخفت عني كل شيء . واخبرتني فضلا عن هذا بكل الوقاحات التي سيتم تداولها بشأني ، وكيف سيتم النصر للاشرار ، وكيف سيتهللون فرحا للعقاب الذي سيحل بكبريائي ، وباللّهوان الذي سألقيه لاستخفافي بأقدار الآخرين ، ذلك الاستخفاف الذي كثيرا ما لاموني عليه .

ولقد أبقت سماعي - يا فلهم - لكل هذا البطف والتعاطف الصادق كوامن انفعالي . ولم ازل في حالة احتياج مفرط . واني لآتمنى لو رأيت رجلا من خصومي يتنقصني بسبب هذا الحادث كي اقتله من فرط غيظي ، لعل دمه المسفوح يخفف من ثورة غضبي الجائح . ولقد امسكت مائة مرة بخنجر ، وهممت ان افرج به كرب هذا القلب ، ويحدثنا علماء التاريخ الطبيعى عن سلالة نبيلة من الجياد تقطع بغيرتها احد شرايينها بأسنانها ، اذا ما اشتدت حماسها وبلغ منها الاعياء في السباق الطويل ، كي تتنفس

بمزيد من الطلاقة والحرية ، ولكم حاولت ان اشق في جسدي شريانا ، كي اوفر لنفسي التحرر الابدي .

٢٤ مارس

قدمت استقالتني الى البلاط ، واثمني ان تقبل ، فأصغح عني لاني لم استشارك قبل ذلك . فلا بد لي من مفادرة هذا المكان . وانا اعلم انكم جميعا ستحضونني على البقاء ، ولذا ارجو ان تبلغ النبا ملطفا لسي والدتي . اني لعاجز عن ان اصنع لنفسي شيئا ، فكيف يتسنى لي اذن ان اصنع شيئا لمساعدة الاخرين لسوف يكرهها انني اجهضت ذلك المستقبل الذي كان يمكن ان يجعلني في البداية مستشارا خاصا ، ثم وزيرا ، واني انظر الى ما ورائي بدلا من التقدم الى الامام . ولكن ان تدلي بما شئت من حجج واسباب كانت خليقة ان تدعوني الى البقاء ، ولكنني راحل ، وهذا حسبك !

ولكيلا تكون جاهلا بمصري ، اذكر لك ان امير... موجود هنا ، وهو مسرور جدا بصحبتني ، ولما سمع بعزمي على الاستقالة دعاني الى بيته الريفي ، كي اقضي شهور الربيع معه . وهناك سيترك لي حرية التصرف في وقتي تماما ، ولما كنا متفقين في جميع الامور ، ما عدا شيئا واحدا ، فسوف اجرب حظي ، واصحبه .

١٩ ابريل

شكرا لك على خطابيك كليهما . وقد تريت في الرد الى ان احصل على رد من البلاط ، فقد خفت ان تتقدم والدتي الى الوزير كي تحبط مسعاي . ولكنني عرفت ان طلبي قد اجيب ، وقبلت استقالتني . ولن اعيد عليك هنا على اي مضض قبلت ، ولا ما الذي كتبه الوزير في رده ، لانك خليك عندئذ ان تجدده تحسرك على تصرفي . وقد ارسل الي ولسي العهد هدية قوامها خمسة وعشرون روكاتية (عملة ذهبية) ، ان هذه الرقة حركت مشاعري حتى دمعت عينايا . ولهذا السبب لن اتقاضى من امي النقود التي كنت قد طلبتها .

٥ مايو

سأغادر هذا المكان غدا ، ولما كان مسقط رأسي لا يبعد عن الطريق لسلطاني إلا ستة أميال ، ففي نيتي أن أتوجه لزيارته مرة أخرى ، واستعيد أحلام طفولتي العذبة . وسأدخل من نفس البوابة التي اخترقتها مع أمي ، عندما غادرت - بعد وفاة أبي - ذلك المعتكف البديع لتنغمس في حياة المدينة المقبضة . وداعا يا صديقي العزيز ، وستصلك انباء عن مستقبلتي العملي .

٩ مايو

لقد زرت مسقط رأسي بكل ولاء الحجيح وخشوعهم ، وخامرتنسي مشاعر غير متوقعة . فبالقرب من شجرة الدردار الكبيرة ، التي تبعد عن القرية مقدار ربع مرحلة ، ترجلت من العربة ، وامرت أن تسبقني ، كي استمتع بمفردي بكل حيوية وسرور قلبي بلدة ذكرياتي ، ووقفت هناك تحت هذه الدردارة بعينيتها التي كانت فيما مضى نهاية نزهاستي على قدمي ، والغاية من هذه النزحات أيضا . شد ما تغيرت الأشياء منذ ذلك الحين ! ففي ذلك الزمن الغابر ، كنت في معمعان جهلي الهنيء أتهد تلهفا على عالم لم اكن اعرفه ، كنت آمل أن اجد فيه كل لذة ومتعة . اما الآن ، ابدان عودتي من ذلك العالم الرحيب ، في أكثر ما جئت بي معي - يا صديقي - من الآمال المخيبة والخطط المحبطة !

ولما تأملت الجبال التي تمتد أمام ناظري ، خطر لي كم من المرات كانت هذه الجبال موضوعا لأعز رغباتي . وهنا تعودت أن أجلس ساعات متوالية ، وقد شدت نظراتي إليها ، متمنيا من أعماق فؤادي أن يتاح لي التجوال في ظل الغابات ، وأن أضل طريقي في تلك الوديان ، التي تبدو بديعة عن بعد . وعلى أي مضض كنت أغادر هذه البقعة الساحرة ، عندما تنتهي ساعة رياضتي واستجمامي ، وينتهي بذلك ما حصلت عليه من رخصة للتغيب عن الدار !

ودنوت من القرية ، فاذا كل البيوت الصيفية العتيقة المعروفة ، وكل الحدائق وقد تجددت ذكراها فتعرفت عليها من جديد ، ولم احبب ما استجد من البيوت والحدائق ، وسائر التغيرات التي ادخلت على المكان .

ودخلت القرية ، وعادودني كل مشاعري القديمة . وليس فسي مقدوري - يا صديقي العزيز - ان ادخل في التفصيلات ، برغم جمال احساساتي ، لان هذه التفصيلات ستبدو سمجة عند السرد . وانتويت ان اقيم في ساحة السوق ، بالقرب من بيتنا القديم . وما ان اخلت حتى تبينت ان قاعة المدرسة - حيث كان اطفالنا يتعلمون على يد تلك المرأة العجوز - قد تحولت الى حانوت . وتبادر الى ذهني كل الاحزان والهموم والدموع والقهر التي عرفتھا في ذلك المكان الذي كنت اخاله سجنًا .

وكانت كل خطوة تحدث عندي انطباعا جديدا . ومن يحج السي الاراضي المقدسة لا يلتقي بكل هذه الكثرة من المواضيع الحبلی بالذكريات الرقيقة ، ولقلما تتأثر روحه ويشعر بكل هذا الخشوع . وقد تكفي حادثة واحدة على سبيل التمثيل . فقد تعقبت مسار جدول الى مزرعة ، كانت فيما مضى مقصدا بديعا لرياضة المشي عندي ، ووقفت عند البقعة التي كنا - ونحن صبية - نمتع انفسنا وننتسلي باللهو على سطح مائها ، وتذكرت جيدا كيف كان من عادتنا فيما مضى ان نرقب مسار ذلك المجرى نفسه ، ونتعقبه بلهفة واستطلاع ، متخيلين صورا رومانسية للاقطار التي سوف يخرقها ، ولكن مخيلتي كانت تصاب بالاعياء ، فسي حين يستمر الماء في تدفقه الى مسافات ابعد ، الى ان يكل توهمي ويعجز عن تصور تلك المسافات غير المرئية . ولقد كانت هكذا تماما - يا صديقي العزيز - افكار اسلافنا الصالحين ، بهذه السعادة ، وبهذه الحدود الضيقة . ولذا كانت مشاعرهم وكان اشعارهم ناضرة كالطفولة . وعندما يتكلم «أوايس» عن البحر الذي ليست له حدود ، وعن الارض التي لا نهاية لها ، كانت تعبيراته صادقة طبيعية عميقة الحس تحفها الاسرار . فما اهمية ما تعلمته كما تعلمه كل غلام يختلف الى المدرسة ، من ان العالم كروي ؟ ان الانسان لا حاجة به الا الى القليل من الارض للاستمتاع ، والى ما هو اقل من ذلك المقدار لراحته الاخيرة .

انا الان مع الامير في مقر صيده . وهو رجل يستطيع المرء ان يعيش معه في سعادة ، فهو صادق امين غير متكلف . ولكن يحيط به - مع هذا - اشخاص فيهم غرابة ، عجزت تماما عن فهمهم . وهم لا يبدون من اهل الشر ، بيد انهم ايضا لا تبدو عليهم امارات اهل الشرف والامانة ، وأشعر احيانا بميل الى الاعتقاد بأمانتهم ، ومع هذا لا اتمكن من اقتناع نفسي بالثقة بهم . ويحزنني ان اسمع الامير يتحدث احيانا عن امور قرأ

عنها او سمع بها فحسب ، ويأتي كلامه عنها على نحو ما صورها لـه
الاخرون .

وهو يقدر فهمي ومواهي اكثر مما يقدر قلبي ، ولكنني لست فخورا
الا بهذا القلب ، فهو المنبع الوحيد لكل شيء : لقوتنا ، وسعادتنا ،
وشقائنا . اما المعرفة التي عندي ففي وسع سائر الناس ان يحصلوها ،
في حين ان قلبي يخصني وحدي دون سواي من البشر .

٢٥ مايو

ثبتت في راسي خطة لم اكن انوي ان احدثك عنها حتى تتحقق : اما
وقد حبطت الان ، ففي وسعي ان اذكرها لك . فقد فكرت ان ادخل
الجيش ، وظللت امدا طويلا متمنيا ان اخطو هذه الخطوة . ولقد كان
هذا في الواقع هو السبب الرئيسي وراء مجيئي الى هنا مع الامير ، لانه
جنرال في خدمة جيش ... وقد ذكرت له هذا المقصد في احدى نزهاتنا
معا على الاقدام ، فلم يوافق عليه ، وكان جنونا مطبقا الا اصغي لمبررات
قراره هذا .

١١ يونيو

قل ما شئت ، فلن استطيع البقاء هنا بعد الان . ولماذا ابقى ؟ ان
مرور الزمن يثقل علي هنا بسبب الفراغ . والامير شخصا من اللطف ما
يكون معي ، ومع هذا لست على سجيّتي ، فليس هناك في الواقع شيء
مشارك بيننا على الاطلاق . انه من اهل الفهم ، بيد انه فهم عادي جدا .
واحاديثه ليست مصدر امتاع لي اكثر مما يمكن ان استمده من تصفح
كتاب جيد الاسلوب . سابقى هنا اسبوعا اخر ، وبعد هذا اشرع في
اسفاري مرة اخرى . ورسومي هي افضل ما صنعتها منذ حللت ها هنا .
والامير متدوق للفنون ، ومن الممكن ان يتحسن لولا ان عقله مكبل بالقواعد
الباردة والافكار التقنية المجردة . واحيانا ينفذ صبري ، عندما انطلق
خيال متوقد في التعبير عن الفن والطبيعة ، واذا به يتدخل بمقترحاته ،
يستخدم استخداما عشوائيا مصطلحات الفنانين التقنية .

١٦ يونيو

ها قد ارتددت مرة أخرى جوالا ، اضرب في الدنيا طولا وعرضا .
ولكن ما تراك تكون انت ايضا ؟

١٨ يوليو

الى اين تراني ذاهب ؟ سافضي اليك بهذا بيني وبينك . ارانسى
مضطرا للبقاء ها هنا اسبوعين آخرين ، وبعد ذلك اعتقد انه من الخير لي
ان ازور مناجم ... ولكنى اضلل نفسي هكذا . فالواقع اني اريد ان اكون
بالقرب من شارلوت مرة أخرى . وهذا كل شيء . واني لابتسم من
تعلات قلبي ، واصدع بما يمليه قلبي .

٢٩ يوليو

كلا كلا ! لم يزل كل شيء بخير . كل شيء بخير ! انا زوجها ! رباه ،
يا من منحني الوجود ، ان كنت قد كتبت هذه السعادة لي ، لكنت كل
حياتي سلسلة متصلة من صلوات الشكر ارفعها اليك ! ولكنى لن اذمر .
اغفر لي هذه الدموع ، واغفر لي هذه التمنيات العقيمة .
هي زوجتي ؟! الا ان مجرد التفكير في ضم أعز مخلوقات السماء هذه
بين ذراعي يكاد يطيش صوابي ! ان كياني كله يا عزيزي قلهم يشعشع
بالتقلص والتشنج عندما ارى البرت يضع ذراعيه حول خصرها النحيل !
ولكن هل لي ان اعترف لك ؟

— ولم لا يا فلهم ؟ انها كانت خليفة ان تكون اسعد معي مما هي معه .
فالبرت ليس الرجل الذي يرضي رغائب مثل هذا القلب ، ان قلبها
يتطلب نوعا معيناً من الحساسية ، انه يتطلب قصارى ما اعنيه ان
قلبيهما لا يخفقان بايقاع واحد ، وفي اتحاد تام . كم من مرة — يسا
صديقي العزيز — ونحن نطالع معا فقرة ما من كتاب مثير للاهتمام ، وقد
بدا ان قلبي وقلب شارلوت يتلاقيان ، بل وفي مئات أخرى من المناسبات
حينما كانت عواطفنا تتكشف بتأثير قصة عن شخصية من الشخصيات
الخيالية ، كنت أحس ان كلا منا خلق للآخر ! ولكنه يا عزيزي فلهم

يحبها بكل نفسه . وما الذي لا يستحقه مثل هذا الحب ؟
لقد فوجئت بزيارة لا تطاق ، فجففت دموعي ، ورتبت افكاري ، والان
وداعا با خير صديق !

٤ اغسطس

لست وحدي العائر الجد . فجميع البشر مخيبو الآمال ، تخذلهم
توقعاتهم . لقد قمت بزيارة المرأة الصالحة التي عرفتها قديما تحت اشجار
الزيتون . وقد اسرع اكبر ابنائها للقائي ، وسمعت امه صيحات فرحه
فخريجت الينا ، ولكن منظرها كان يوحى بالاكتئاب . وكانت اولسى
كلماتها لي :

— وا حيرتاه يا سيدي العزيز ! لقد مات ابني الصغير جون .
وكان جون اصغر ابنائها . ولدت بالصمت .
— وقد عاد زوجي من سويسرا ولم يجلب معه مالا على الاطلاق .
ولولا ان بعض العطفين من الناس اعانوه لاضطر الى تسول نفقات
الطريق الى الوطن ، وقد اصابته الحمى وهو في الطريق .
ولم استطع جوابا ، بيد اني قدمت للصغير هدية . ودعنتي لتناول
شيء من الفاكهة ، فاستجبت لها ، وغادرت بعد ذلك المكان بقلب أثقلته
الاشجان .

٢١ اغسطس

مشاعري دائمة التغير . وأحيانا تنفتح امامي توقعات سعيدة ، ولكن
وا اسفاه ! لا يدم هذا الا برهة قصيرة ، ثم عندما اغيب في أحلام يقظتي
لا املك الا ان اقول لنفسي :

— لو مات البرت ! اذن لغدت ... ولغدوت ...
وهكذا امعن في ضلالات الوهم الى ان تقودني الى الهاوية التي اقف
امامها مرتجفا . وعندما اسير — بالخيال — مخترقا نفس البوابة ، وعلى
نفس الطريق الذي قادني اليه اول مرة ، يفوص قلبي في داخلي لمجرد
التفكير في التغير الذي حدث . لقد تغير كل شيء ! ولم يعد شعور مسن

مشاعري ولا نبضة من قلبي كما كانت . ان احساسى لهو أشبه باحساس
امير راحل يعود روحه ليلىم بالقصر الفخم الذي ابتناه في ايام سعده ،
وزينه بأعلى الزخارف ، وتركه من بعده لولده الحبيب ، واذا به يلقى
مجدده وقد ذهب ، ووراءه وقد انطفأ ، وابهاه وقد غدت مهجورة ، وران
عليها الخراب حتى جعلها اطلالا ...

٢ سبتمبر

انى لاعجز احيانا عن فهم كيف يتسنى لها ان تحب رجلا اخر ، وكيف
تجرؤ ان تحب رجلا اخر ، في حين اننى لا احب شيئا في هذه الدنيا مثل
هذا الحب التام ، وبمثل هذا الخشوع ، مثلما احبها هي . وفي حين
اننى لا اعرف سواها ، ولا املك في الدنيا شيئا غيرها .

٤ سبتمبر

ما ان تتخذ الطبيعة ألوان خريفها ، حتى يسود الخريف في داخلي
ويحرق بي . فأوراقى ذابلة صفراء ، والاشجار المحيطة بي عاطلة من
اوراقها . اذكر كتابتي اليك عن ذلك الغلام الفلاح بعيد وصولي الى هنا
بقليل ؟ لقد سألت عنه اخيرا في قالهايم ، فقيل لي انه طرد من عمله ،
وان الجميع يتجنبونه . وقد لقيته بالامس على الطريق ، ذاهبا الى قرية
مجاورة . وكلمته ، وحدثني بقصته ، فشاقتني للغاية ، وستدرك هذا
تمام الادراك عندما اعيدها عليك . ولكن لماذا ازعجك ؟ لماذا لا احتفظ
بجميع احزاني لنفسي ؟ لماذا اواصل اتاحة الفرص لك كي ترني لي وتوجه
اللوم الي ؟ ولكن لا ضرر . فهذا ايضا جانب من قدرى .

في البداية اجاب الفتى الفلاح عن استفساراتي بشيء من الاكتئاب
المدع المتطامن ، الذي بدا لي آية على طبع خجول ، ولكن لما ازداد فهم كل
منا لصاحبه غدا اقل احتجازا وتحفظا في كلامه ، واعترف صراحة
بأخطائه ، وتحسر على سوء طالع . واني لآتمنى يا صديقي العزيز لسو
أوتيت القدرة على التعبير الملائم عن لغة حديثة . فقد قال لي - بشيء من
التذكر المحبب اليه - ان ولعه - بعد رحيلي - بمخدومته اخل فسي
الازدياد بمرور الايام ، الى ان فقد الوعي بما يصنع وما يقول ، ولم يعد
يدري ماذا سيصير من امره . ولم يعد قادرا على طعام او شراب او نوم،

وصار يحس نوعا من الاختناق ، وجعل يعصي كل امر يصدر اليه ، وينسى - بغير ارادته - كل تعليماته ، فبدأ وكأن روحا شريرا يتعقبه ، الى ان عرف ذات يوم ان مخدومته صعدت الى حجرة علوية ، فتبعها ، او قل انه وجد نفسه منجذبا على آثارها . ولما اصمت اذنيها عن توسلاته ، لجأ الى العنف . وهو لا يدري بالضبط ماذا حدث ، بيد انه يشهد السماء ان نيته نحوها كانت شريفة ، وانه ما صبا الى شيء بكل صدق واخلاص . سوى الزواج منها ، كي يقضيا حياتهما معا . ولما وصل فسي قصته الى هذا الموضع شرع يتردد ، وكان لديه شيء ما لا يجد الشجاعة على التفوه به ، الى ان اعترف بشيء من الارتباك بأنها شجعته على شيء من الاعترافات والافضاء بمكنون قلبه نحوها ، وبأنها كانت قد سمحت ببعض التجاوزات . وتوقف مرتين او ثلاثا في سياق السرد ، واكد لي بكل جد انه لم تكن لديه اي رغبة في افسادها او الاساءة اليها - على حد تعبيره - لانه لم يزل يحبها بكل الاخلاص كذي قبل ، وان هذه القضية لم يتفوه بها فمه قط من قبل ، وانه ما افضى بها الى الان الا كي يقنعني بأنه ليس ضائعا تمام الضياع ولا منبوذا تمام النبذ .

وهنا يا صديقي العزيز اراني مضطرا ان ابدأ الانشودة القديمة التي تعلم اني ارددها دائما : آه لو استطعت ان اصور الفتى كما وقف ، وكما يقف الان امامي ! وآه لو امكنت ان اصور تعبيره الحقيقي ، اذن لرأيت لزاما عليك ان تتعاطف معه في قسمته الضيزي . ولكن حسبك - وانت ادرى الناس بنكيتي واتجاهي النفسي - ان تفهم في سر مقدار الجاذبية التي تستولي علي وتعطفني على كل انسان عاثر الجذ ، ولا سيما على ذلك الفتى الذي قصصت عليك قصته الان .

ومهند اعادة تلاوة هذا الخطاب اجدني اغفلت نهاية حكايتي ، ولكن ايرادها من أيسر الامور . لقد غدت المرأة شديدة التحفظ معه ، بتحريض من اخيها الذي كان يكرهه منذ امد طويل ، ويريد طرده من البيت ، لانه كان يخشى ان يفضي زواج اخته مرة اخرى الى حرمان اطفاله من الثروة الطيبة التي يتوقعونها منها ، لانه لا ولد لها . وفي النهاية فصل من الخدمة ، وأثارت المسألة فضيحة كبيرة بحيث لم تجسر السيدة على اعادته لخدمتها ، بفرض انها ارادت ذلك . وقد استأجرت بعد ذلك خادما اخر ، يقولون ان اخاها غير راض عنه ايضا، ويبدو انها ستتزوجه . ولكن محدثي يؤكد لي انه شخصا مصمم على الا يعيش بعد وقوع هذه الكارثة .

وهذه القصة رويتها لك بلا مبالغة ولا تزويق ، بل الواقع اني اضعفتها وشوهتها عند سردها باستخدام التعبيرات التي يسبغها المجتمع .
فهذا الحب اذن ، وهذا الوفاء ، وهذا الولع ، ليس خيالا شاعريا ، بل هو امر واقعي ، حدث بأوفى نصيب من النقاء في تلك الطبقة من البشر التي نعتتها بالغلظة ، والعطل من التربية والتعلم . ونزعم اننا نحن المتعلمون لا الشواذ ! ولكني اناشدك ان تطالع هذه القصة بانتباه وعناية .
وانا اشعر اليوم بالهدوء لاني شغلت نفسي بهذا السرد ، ولعلك ترى من خط يدي اني لست مضطربا جدا كالعادة . اقراها اذن وأعد قراءتها يا فلهم ، فهي قصة صديقك ! وحظي كان وسيكون شبيها بهذا . وأنا لست اقل شجاعة وتصميما من ذلك التمس المسكين الذي اتردد في مقارنة نفسي به .

٥ سبتمبر

كتبت شارلوت خطابا الى زوجها في الريف ، حيث عاقته بعض اعماله . وقد استهلته بقولها :
- يا أعز حبيب ، عد بأسرع ما يمكنك ، فاني انتظر لك بالف نشوة .
ووصل صديق يحمل نبأ منه بأنه - لاسباب معينة - لا يستطيع العودة فورا . ولم يحول خطاب شارلوت الى عنوان زوجها الجديد ، وفي نفس الامسية وقع في يدي ، فطالعت ، وابتسمت . وسألتني عن السبب ، فقلت :
- يا للمخيلة من كنز سماوي ! لقد توهمت للحظة ان هذا الخطاب موجه الي .
فصمت ، وبدا عليها الاستياء . ولذت انا بالصمت .

٦ سبتمبر

لقد تجشمت كبير عناء كي افارق المعطف الازرق الذي كنت ارتديه اول مر قراقت فيها شارلوت . ولكني لم اعد قادرا على ارتدائه ، ولذا امرت بتفصيل نظير له جديد ، مطابق له تماما ، حتى فيما يتعلق بالياقة والكمين ، كما طلبت تفصيل صدر وسروال جديدين . بيد ان هذه الثياب الجديدة ليس لها نفس الاثر في نفسي ، ولست ادري لهذا سببا ، الا اني آمل ان آلفها بمرور الوقت .

١٢ سبتمبر

تغيبت شارلوت بضعة ايام ، اذ توجهت للقاء البرت ، واليوم زررتها،
فنهضت لاستقبالها ، وقبلت يدها بحنان شديد .
وطار عصفور كناري في هذه اللحظة من مرآة هناك واستقر على
كفها . فقالت ، وهي تجعله يجثم فوق يدها :
- ها هو صديق جديد ، وهو هدية للاطفال . ويا له من عزيز انظر
اليه ! عندما اطعمه يررف بجناحيه ، وينقر الطعام بظرف بالغ . وهو
يقبلني ايضا .. انظر ..
ورفعت العصفور الى فمها ، فلثم شفتيها الحلوتين بحرارة عظيمة
وحماس ، حتى لكانه يحس مبلغ الهنساء الذي ينعم به . واردفت
شارلوت :

- وسوف يقبلك ايضا .
وعندئذ قربت الطائر مني ، فتحرك منقاره الصغير من فمها الى فمي،
واحتست لهذا المس وكأنه ارهاص بأعظم سعادة . وقلت لها :
- ان القبل لا يبدو انها تقنعه ، فهو يريد الطعام ، ويبدو ان هذا
التدليل يخيب امله .
فقالت :

- ولكنه يأكل من فمي .
ومدت شفتيها نحوه وفيهما بعض البذور ، وابتسمت بكل السحر
الذي يشع من الكائن الذي سمح بالمشاركة البريئة في حبه .
وحولت وجهي مشيحا عن هذا المشهد ، فما كان ينبغي ان تصنع
هذا . كان ينبغي الا تثير خيالي بمثل هذه الافاعيل التي تفيض سعادة
وبراءة ، ولا ان توقظ قلبي من سباته الذي يحلم فيه بتفاهة قيمة
الحياة ! ولماذا لا ينبغي لها هذا ؟ لانها تعرف كم احبها .

١٥ سبتمبر

كم يشقيني يا فلهم ان يكون في الدنيا اناس عاجزون عن تقدير
الاشياء القليلة ذات القيمة الحقيقية في الحياة . اتذكر اشجار اللوز
في ... التي تعودت ان اجلس تحتها مع شارلوت ، اثناء زياراتي للقوس
الفاضل المسن ؟ تلك الاشجار الرائعة التي كان مجرد النظر اليها يملا

قلبي في كثير من الاحيان بالحبور ، لكم كانت تزين وتنعش فناء بيت القس بأغصانها المديدة المنفرعة ! ولكم كان يديعا ان يقترن ذلك بصورة القس بأغصانها المديدة المنفرعة ! ولكم كان يديعا ان يقترن ذلك بصورة معلم المدرسة كثيرا ما يذكر اسمه الذي تلقاه عن جده . وكان يطيب لنا ان نمجد ذكره تحت ظلال هذه الاشجار العتيقة . وقد ذكر لنا معلم المدرسة بالامس ، والدموع في عينيه ، ان هذه الاشجار قد قطعت . اي والله اسقطت على الارض ! ولكم كنت خليقا - من فرط حنفي - ان اقتل الوحش الدميم الذي وجه اليها الضربة الاولى . ولا مفر لي من تحمل ما حدث !.. انا الذي - لو كانت مثل هذه الاشجار في فنائسي - لكنت خليقا اذا ما ماتت احداها من فرط الشيخوخة ان ابكي من سدة الاسى . ولكن بقي لي شيء من العزاء . وهكذا العاطفة ! ان القرية بأسرها تدمر من هذه النكبة ، وآمل ان تدرك زوجة القس قريبا من انقطاع هدايا القرويين مبلغ ما اصاب مشاعر اهل الناحية من تأذ لما حدث لهذه الاشجار ، فقد كانت هي مرتكبة هذه الفعل - اعني زوجة القس الجديد (لان شيخنا الطيب قد رحل عن الدنيا) - وهي مخلوقة طويلة علية تفض النظر عن العالم وبغض العالم - وبحق - نظره عنها كل الاغضاء . وتنتظر هذه المخلوقة بانها متعلمة ، وتزعم انها تراجع الكتب الكنسية ، وتفيض عونها على «موضة» الاصلاحات الحديثة للمسيحية ، وهي مولعة بالخوض في الانتقاد والتشدد بالاخلاقيات وتهز كتفيها ازدياء اذا ما اثار احد موضوع «الحماسة» على مذهب «لافاتر» (شاعر سويسري صوفي له مؤلفات في الفلسفة واللاهوت) . وصحتها محطمة ، لكثرة ما حرمت نفسها من كل متعة تمت بصلة الى العالم الدنيوي . وما كان سوى هذه المخلوقة خليقا ان يقطع اشجار لوزي الجليلة الجميلة ! ولن اصفح عن هذه الفعل . والان اسمع مبرراتها : ان الاوراق المتساقطة تجعل الفناء رطبا قدرا ، والاغصان تعترض ضوء الشمس ، والفلمان يرشقون الثمار بالحجارة عندما تنضج ، فيؤثر صوت هذه الجلبة في اعصابها ويعكر عليها صفو تأملاتها ، وهي تزن في رأسها صعوبات «كنيكوت» (عالم التوراة الانجليزي) ، واضرابه ، مثل «سيملر» و«ميخائيليس» .

ولما وجدت كل الابروشية - ولاسيما المسنين - مستائين ، سألتهم لماذا يسمحوا بذلك ، فقالوا لي :
- اواه يا سيدي ! وما حيلة امثالنا من الفلاحين الفقراء اذا اصدر ناظر الزراعة امره ؟

بيد ان شيئاً ما وقع على كل حال ، فناظر الزراعة والقس (الذين خطر لهما ان يحصلوا ولو مرة واحدة على بعض الفائدة من نزوات زوجته) اعتزما ان يقسما خشب الاشجار فيما بينهما ، ولكن الادارة المالية للمقاطعة سمعت بالحادث ، فانارت دعوى قديمة بملكية الارض التي كانت فيها الاشجار ، وقررت بيع الاخشاب لمن يدفع فيها اكبر ثمن . وهكذا لم تزل الاشجار ملقاة على الارض . ولو كنت انا العاهل لعرفت كيف اتعامل معهم جميعاً : القس ، وناظر الزراعة ، والادارة المالية . اقول لو كنت العاهل ؟ اني لخليق عندئذ ان اعير شيئاً من اهتمامي للاشجار التي تنمو في الريف .

١٠ أكتوبر

مجرد النظر الى عينيها السوداوين يملؤني بالسعادة ! وما يحزنني ان البرت لا يبدو سعيداً بالقدر الذي كان يتمناه . وبقدر ما كنت خليفاً ان اكون لو انني ... - لست احب هذا التلعثم - ولكنني لا استطيع ان اعبر عما بنفسني على غير هذا المنوال ، ولعلني قد ابنت عن خاطري بما فيه الكفاية .

١٢ أكتوبر

لقد حل «اوسيان» في قلبي محل هوميروس . واي عالم هذا الذي يحملني اليه هذا الشاعر الصداح ! الى حيث اجوب براري لا تشقهها دروب ، تحف بها دوامات رياح مندفعة ، حيث نرى على ضوء القمر الواهن ارواح اسلافنا ، ونصفي من اعالي قمم الجبال ، وسط هدير الشلالات المنحدرة منها ، الى اصواتهم الشاكية صادرة من الكهوف والمغاور العميقة ، والى التاوهات المولهة الحسرى لفتاة تجود بنفسها فوق قبر كسته الاعشاب والطحالب يشوي فيه محارب كان يعبدها حباً . والتقى في تلك المجاهل بذلك الشاعر الصداح ذي الشعر الفضي ، يرتاد الوهاد والوديان ، باحثاً عن آثار اقدم آباءه ، ولكن وا حر قلباه ! انه لا يعثر الا على ارماس قبورهم ! ثم يتأمل البطل ضوء القمر الشاحب وهو يغرب غائصاً في امواج البحر الطامي ، فتنبثق في ذهنه ذكريات الايام الخوالي .. ذكريات تلك الايام التي كانت مخاطرها تقوي من بأس

الشجعان ، وتشد من ازهرهم ، وكان ضوء القمر حينئذ يسطع على سفينة محملة بالاسلاب ، عائدة تهز رايات النصر والفخر . وعندما اقرا فسي اساريه الاسى العميق ، وارى مجده القارب ينزل متهالكا الى القبر ، وهو يستنشق بهجة جديدة تهز القلب لا شك اتحاده بمحبوبته ، فيلقي نظرة على الارض الباردة ، وعلى العشب الطويل الذي سرعان ما يغطيه ، وعندئذ يهتف :

— سيأتي ذلك الرحالة .. سيأتي ذلك الذي راى من قبل جمالي ..
ولسوف يسأل : «ابن الشاعر الصادح .. اين سليل «فنجال» المجيد؟»
ولسوف يسير فوق قبري ، وعبثا يبحث عني !
وحينئذ — يا صديقي — اكاد أمثشق من فوري — شأن الفارس
الصادق النبيل — حسامي ، لأخلص من برائن الموت اميري هذا ، وأطلق
عندئذ روحي لتتبع خطا ذلك الشبيه بالالهة الذي حررته يدي !

١٩ أكتوبر

وا حسرتاه ! يا للخواء — يا للخواء المخيف الذي احسه في صدري !
لكم يخطر لي احيانا ، ليته يتاح لي مرة واحدة فحسب ... ان اضمها
الى فؤادي ، اذن لكان هذا الخواء المقيت المخيف خليقا ان يمتلىء !

٢٦ أكتوبر

اجل يا فلهم ، اني اشعر عن يقين ، ويزداد يقيني هذا يوما بعد
يوم ، ان وجود اي كائن ليس له الا القليل جدا من القيمة وقد وصلت
الان صديقة لزيارة شارلوت ، فانسحبت الى الجناح المجاور ، وتناولت
كتابا ، ولما الفيت نفسي غير قادر على القراءة جلست لاكتب . وقد
سمعتهما يتحدثان بصوت خفيض ، في أمور شتى لا اهمية لها ، وتتبادلان
اخبار المدينة . فهذه على وشك الزواج ، وتلك مريضة ، مريضة جدا —
ينتابها سعال جاف ، ووجهها يزداد في كل يوم نحولا ، وتصيبها في بعض
الاحايين نوبات ... وقالت شارلوت :
— ن ... مريض جدا ايضا ...
وردت عليها الاخرى قائلة :

— لقد بدأت اطرافه في التورم فعلا .
وعلى الفور خفت بي اجنحة خيالي الى مخادع المرضى ، وهأنذا اراهم
يكافحون الموت ، بكل العذاب والالم والفرع ... وهاتان المراتان — يا
فلهم — تتحدثان في هذا كله بعدم الاكراث الذي يذكر به احدا وفاء
شخص غريب عنه . وحينما انظر حوالي في الحجرة التي انا بها الان ،
وارى معدات شارلوت ملقاة امامي ، وكتابات البرت ، وكل تلك القطع من
الاثارات المألوفة لي ، حتى تلك المحبرة التي استخدمها الان ، واتذكر من
انا في تلك الاسرة ... انني لديهم كل شيء ، فصديقي هذان يقدراني ،
وكثيرا ما أسهم في سعادتهما ، ويخيل الي ان قلبي لا يستطيع ان يخفق
بدونهما . ومع هذا — اذا كتب علي او قدر لي ان اموت ، واخرج مسن
وسط الدائرة — هل تراهما يشعران — واذا شعرا فالى اي مدى ولاي
مدة من الزمن يدوم شعورهما بالفراغ الذي تركه فقدي في حياتهما ؟ كم
ترى يطول هذا ..! اجل هذا هو هوان قدر الانسان ، انه حيث يشعر
بوجوده اقوى شعور ، وحيث له اقوى وافعل الاثر ، حتى في ذاكرة
محبوبته وفي قلبها .. هنا ايضا لا مفر له من الزوال والتلاشي ...
والتلاشي السريع !

٢٧ أكتوبر

اني لخليق ان امزق صدري غيظا كلما فكرت في ضالة قدرة كل منا
على التأثير في مشاعر الاخر . فما من احد يستطيع ان يوصل الى
مشاعر الحب والفرح والنشوة والحبور التي لا امتلكها بطبيعتي . . ومع
ان قلبي قد يتوهج بأقوى احساس المودة والاعزاز الا انني لن استطيع ان
أسعد امرا لا نصيب له بفطرته من عين هذه المشاعر الحارة .

٢٧ أكتوبر ، اسبوع

لدي الكثير جدا ، ولكن جبي اياها يستوعب ذلك كله ، لدي الكثير
جدا ، ولكنني بدونها لست املك شيئا .

٣٠ أكتوبر

لقد اوشكت مائة مرة ان أقدم على عناقها . يا للسماء ! اي عذاب لي

ان ارى بعيني راسي كل هذه الملاحه تمر بنا ، ثم تعاود المرور مسرارا
وتكرارا . نم لا نجسر على الامساك بها ! والامساك بالاشياء غريزة طبيعية
في البشر . افلا يلمس الاطفال كل ما يرونه بأعينهم ؟ وأنا ..!

٣ نوفمبر

اشهدي يا سماء كم من مرة رقدت في فراشي وبى رغبة ، بسـل
وبحدوني الامل الا استيقظ من رقادي ذاك ابدا ! وفي الصباح ، عندما
امسح عيني ، وارى الشمس مرة اخرى ، اشعر بالتعاسة . ولو كنت
امرءا كثير النزوات غريب الاطوار لكنت حريا ان القي باللوم على كاهل
اليلقـس . او على بعض من اعرف ، او على خيبة امل شخصيته ، واعد
ذلك مسئولا عن سخطي ، وبذلك لا يقع هذا العبء الباهظ - عبء متاعبي
واضطرابي - على عاتقي شخصيا . ولكن وا اسفاه ! اني لاشعر - بكل
حزن - انني وحدي مصدر جميع احزاني واشجاني ، كما كانت نفسي من
قبل مصدر جميع مسراتي وافراحي . فانا عدو نفسي الحقيقي . الست
انا عين ذلك المرء الذي استمتع يوما ما بالسعادة المفرطة . فكان يرى في
كل خطوة وكان الفردوس قد فح ابوابه له ، فكان قلبه يتفتح دواما
للعالم اجمع ؟ وهذا القلب بعينه قد مات الان ، وما من احساس يمكن
ان يبعثه من مواته . عيناى جامدتان ، وحواسي لم تعد ترويهـا دموعي
الندبة ، وكذلك ايضا اخذ مخي يذوي ويتآكل .

ما أشد ما أعاني لانني فقدت سحر حياتي الاوحد ، فتلك القوة
الفعالة النشطة القدسية التي كانت تخلق العالم من حولي ، لم يعد لها
وجود . وعندما اطل من نافذتي الى التلال النائية ، وارى شمس الصباح
تشق طريقها وسط أستار الضباب ، وتضيء الريف من حولي ، ذلك
الريف الذي لم يزل متشحا بالصمت والمسكينة ، في حين يتدفق الجدول
الرقراق بلطف بين اشجار الصفصاف التي نفخت اوراقها ، وعندما
تعرض الطبيعة حفل رواها وزينتها امام انظاري ، وتعجز هذه الروائع عن
ابتعاث دمة سرور واحدة من قلبي الذابل ، عندئذ اشعر انني اقف امام
السماء وقفة الرافض الشرير الجامد ، جامد الحس والفؤاد ، لا تحرك مني
هذه الامجاد ساكنا .

وما أكثر ما أجتو حينئذ راکما على الارض ، وابتهل الى الله اسأله
نعمة الدموع ، على نحو ما يبتهل الزارع المنكود في زمن القحط والجفاف

ان تتحنن عليه السماء بالانداء التي تنقع غلة قمحه المهدد بالفناء عطشا .
ولكنني أشعر ان الله لا يفيض ضوء شمسه ولا وابل مطر استجابة
لابتهالاتنا . واهل لتلك الايام الخوالي التي تعذبني ذكرياتها الان ! لماذا
كانت تلك الايام بكل هذه العذوبة والهناء ؟ ذلك اني حينئذ كنت انتظر
بصبر على هداها بركات الله الابدية ونعماءه ، وكنت ألقى عطاياه بأعظم
مشاعر العرفان التي يفيض بها قلب شكور ..!

٨ نوفمبر

انبتني شارلوت على تطرفي ، ولكنه كان تأنيبا حافلا بالركة والطيبة!
فقد دأبت في المدة الاخيرة على شرب الخمر اكثر من ذي قبل .
فقلت لي :

— اياك وهذا الاكثار . فكر في شارلوت !

فاجبتها :

— أفكر فيك ؟ إبحاجة انت الى ان توصيني بهذا ؟ أفكر فيك حقا !
انا لا أفكر فيك ، لانك دائما وأبدا مائلة امام روجي ؟ وفي هذا الصباح
بالذات جلست على البقعة التي نزلت فيها — منذ بضعة ايام — من
أهربة ، و ...

وعلى الفور غيرت الموضوع لئلا تمنعني من المضي فيه اكثر من هذا . ان
جميع طاقاتي يا صديقي العزيز منهكة ، وفي وسعها ان تصنع بي
ما تشاء .

١٥ نوفمبر

أشكرك يا فلهم على تعاطفك القلبي ، ونصحك الممتاز ، وأناشدك
الهدوء ، ودعني لعذابي . فلم تزل لدي — برغم تعاستي — قدرة كافية
على التحمل . وأنا أوقر الدين وأجله ، وانت تعرف هذا . وأعرف ان
الدين قادر على منح القوة للضعفاء ، وراحة المنكوبين بالارزاء ، ولكن هل
لدين اثر متساو لدى الجميع بلا استثناء ؟ فكر في هذا الكون المترامي ،
وسترى الألوف ممن لم يكن لتأثير الدين عندهم وجود قط ، سواء بشروا
به او لم يبشروا ، فهل من الحتم اذن ان يكون له عندي اثر . او ليس
المسيح نفسه هو القائل انه انما يؤمن به من اعطاهم «الاب» له فحسب ؟

فهل أنا ممن اعطوا له ؟ ماذا لو احتفظ بي «الاب» لنفسه ، كما يوحسي الي بذلك قلبي احيانا ؟

وارجوك الا تسيء تأويل قلبي هذا ، ولا تستخرج من كلماتي البرينة ما يدل على الزرابة بالدين ، فانا اسكب بين يديك روحي بأسرها . ولقد كان الصمت احب الي ، ولكنني لست بحاجة الى التراجع امام موضوع لا يعرف عنه الا القليلون اكثر مما اعرف شخصا . ما مصير الانسان وما قدره ، اللهم الا ان يملأ كأس عذابه ومعاناته ، وان يتجرع ما قدر له من المارارة ؟ واذا كانت هذه الكأس نفسها قد بدت مريرة للمسيح وهو في صورة البشر ، فلماذا اتكلف كبرياء حمقاء وانعت هذه الكأس بالعذوبة ؟ لماذا ينبغي ان اخزي من التراجع عند اللحظة الرهيبة عندما ترتجف روحي بين الوجود والعدم ، وعندما نضيء ذكرى الماضي ، كوميض البرق ، هاويه المستقبل المظلمة ، فاذا بكل شيء ينحل من حولي ، واذا العالم كله يتلاشى ؟

ليس هذا هو صوت مخلوق تجاوز ضيقه وعناؤه كل حد ، وخلدته ذاته ، حتى بات على وشك الوثوب ليفوض في لجة الفناء الذي لا مناص منه ، وهو ينادي متأوها من أعماقه ومتحسرا على قوته المتداعية :

— الهى ! الهى ! لماذا تخليت عني ؟

وهل ينبغي ان أشعر بالخزي وأنا اتفوه بهذه العبارات نفسها ؟ ينبغي لي الا ارتجف امام مصير كانت له رهيبته ومخاوفه حتى بالنسبة للمسيح ؟

٢١ نوفمبر

انها لا تحس ولا تعلم انها تعد سجننا سوف يدمرنا كلينا . وانا اشرب بافراط من الجرعه التي سيكون فيها هلاكى . واي معنى لهذه النظرات الفائضة بالرقه والحنان التي كثيرا — كثيرا ؟ كلا . ليس كثيرا ، بل احيانا — ما ترتضي بها ، ولهذا الرضا الذي تصغي به للعواطف الا ارادية التي كثيرا ما تند عنى وللشفقة الحانية التي تظهر على محياها لما اعابه من عذاب ؟

بالامس ، عندما هممت بالانصراف ، امسكت بيدي وقالت :

— وداعا يا عزيزي فيرتر .

عزيزي فيرتر ! لقد كانت هذه اول مرة نادتنى فيها بيا «عزيزي» ، ففادس الصوت في اعماق فؤادي . وكررتة مائة مرة ، وفي الليلة

الماضية ، وأنا ذاهب الى فراشي ، تحدثت الى نفسي في امور شتى ، ثم قلت فجأة :

— طابت ليلتك يا عزيزي فيتر .
ولم يسعني عندئذ الا ان اضحك من نفسي .

٢٢ نوفمبر

لا يمكنني ان ادعو الله ان يتركها لي ، وهي التي تبدو في كثير من الاحيان منتمية الي . ولا يمكنني ان ادعو الله :
— اعطنيها !

لانها امرأة اخر . وبهذا الاسلوب اغلب المرح على متاعبي . ولو كان عندي متسع من الوقت لكتبت اليك سلسلة ابتهالات على منوال هذه النقائض .

٢٤ نوفمبر

انها على احساس بعذابي . وهذا الصباح اخترقت نظرتها صميم روحي . فقد وجدت بها بمفردها . وكانت صامته ، وراحت تتفحصني بصورة مباشرة ، ولم اعد ارى في محياها مفاتن الجمال ولا نار العبقرية . . فكل ذلك كان قد اختفى . بيد اني تأثرت لديها بسيما امعن تأثرا في النفس : بنظرة تدل على اعمق التعاطف وارق الرحمة . فلماذا خفت ان القي بنفسي عند قدميها ؟ لماذا لم اجسر على احتضانها بين ذراعي ، لاجيها بالف قبلة ؟

ولجأت الى البيانو كي تخفف عما بها ، وبصوت خفيض عذب راحت تصاحب الموسيقى بانغام مستحبة ، ولم ار في حياتي شفيتها بهذه الحلاوة : فهما لا تكادان تنفرجان الا بما يسمح بالتغريد الذي يتلقى اهتزازات المعزف ، ويرجعها من فمها ! من لي بالتعبير عن مشاعصري عندئذ ! لقد غلبت على امري ، وانحنيت فهمست اليها بهذا النذر :
— ايتها الشفتان الجميلتان اللتان تحرسهما الملائكة ، لن احاول تدنيس نقالكمما بقبلة !

ومع هذا يا صديقي كم اتمنى — وان كان قلبي معتما بالشك والتردد — لو استطعت ان اذوق هذا الهناء ، ثم اموت بعدها تكفيرا عن اثمي ! ولكن اي اثم ؟

٢٦ نوفمبر

كثيرا جدا ما اقول لنفسي :
— أنت وحدك التمس ، اما سائر ابناء الفناء فسمعاء ، وما من احد
فيهم مني بمثل كربى وضائقتى .
وعندئذ اقرا نصا من شاعر قديم ، ويخيل الي اني فهمت قلبي . الا
ما اكثر ما ينبغي لي ان اتحملة ! افهل كان البشر قبلي بمثل هذه
التعاسة ابدا ؟

٣٠ نوفمبر

لن اعود سيرتي الاولى ابدا ! فانيما توجهت حدث ما يشتتني بفعل
القدر . فاليوم — واهل لقدرنا ومصيرنا ! واهل للطبيعة البشرية !
قبل وقت الغداء ذهبت لاثمشى على شاطئ النهر ، لانني لم اجد
اي شهية للطعام . وبدا كل ما حولي واجما ، وهبت ريح شرقية باردة
رطبة قادمة من الجبال ، وانتشرت فوق السهل سحب ثقيلة سوداء .
ولمحت عن بعد رجلا في معطف رث بال ، كان يتجول بين الصخور ،
ويبدو انه كان يفتش عن نباتات . فلما اقتربت منه التفت الى مصدر
الصوت ، فرايت له سحنة تثير الاهتمام ، ترين عليها الكابة ، تخالطها
طبيعة بادية . وكان ذلك اهم ما يميز سيماء . وكان شعره الاسود الطويل
مقسوما من الوسط ، ويتهدل على كتفيه . ولما كان زيه يدل على رجل
من الطبقة الدنيا ، فقد ظننت انه لن يستاء ان سألته عما يصنع ، وعندئذ
سألته عم يبحث . فأجابني بفرقة عميقة انه يبحث عن الازهار ، ولكنه لا
يجد منها شيئا ، فقلت له باسم :
— ولكن هذا ليس اوانها !
فأجابني وهو يذنو مني :

— بل هناك الكثير منها جدا ، ففي حديقتي ورد وازهار على نوعين :
احدهما اعطانيه ابي ، وتنمو بكثرة وغزارة كالاعشاب . ولي يومان ابحث
عن هذين النوعين ، ولا اجدتهما . وها هناك في حديقتي ازهار صفراء
وزرقاء وحمراء ، وهناك ايضا ازهار اخرى بدیعة جدا ، ولكني لا اجد
شيئا منها هنا .
فلاحظت غرابة اطواره ، ولذا سألته بلهجة تدل على عدم الاكتراث ما

الذي ينوي ان يصنع بأزهاره ، فاكتمسى محياه ابتسامة غريبة ، ورفع
اصبعه الى فمه ، تعبيرا عن امله في !لا افشي سره ، ثم اخبرني انه وعد
حبيبته ان يجمع لها باقة زهر صغيرة . فقلت له :

— عظيم جدا .

فاجابني :

— اوه ! انها تمتلك اشياء اخرى كثيرة ايضا ، فهي ثرية جدا .

— ومع هذا فهي تحب باقاتك الصغيرة .

فهتف :

— اوه ! كم لديها من جواهر وتيجان !

فسألته من هي . فقال :

— آه لو تقدني مجلس طبقات الامة راتبي ! اذن لغدوت انسانا اخر .

وا أسفاه ! لقد غبر علي وقت كنت فيه سعيدا جدا ، ولكن هذا الوقت

مضى وانتضى ، وأنا الان ...

ورفع عينيه الرجراجتين الى السماء . وسألته :

— اكنت سعيدا يوما ما ؟

فاجابني :

— لكم أتمنى لو ظللت هكذا حتى الان ! فقد كنت يومئذ أشد خلق

الله رضا وحبورا .

وعندئذ صاحبت امرأة عجوز كانت قادته نحونا :

— هنري ! هنري ! اين انت ؟ لقد كنا نبحث عنك في كل مكان .

تعال للغداء .

فسألتها وأنا اتوجه اليها :

— اهو ابنك ؟

فقالت :

— نعم . انه ابني المسكين العائر الحظ . لقد انزل الله بي نكبة كبرى .

فسألتها : أله زمن طويل هكذا ، فاجابتنني :

— لقد اصبح بالهدوء الذي تراه به الان منذ ستة شهور ، وأشكر

السماء لانه شفي الى هذا الحد ، فقد ظل سنة بأكملها يهدي ، مكبلا

بالقيود في مارستان . اما الان فهو لا يؤذي احدا . . بيد انه لا يتكلم الا

عن الملكات والملوك . وكان قبل ذلك فتى طيبا جدا وهادئا ، يعينني على

نفقات الحياة . كان كاتباً جميل الخط جدا ، ولكنه على حين غرة أصيب

بالإكتئاب وامت به حمى شديدة الوطأة ، فتشتت ذهنه ، وصار على ما

تراه الان . آه لو قلت لك يا سيدي ...
فقاطعتها وسألتها عن الحقيقة التي كان يتباهى بأنه كان سعيدا جدا
فمها ، فصاحت وهي تبسّم في اشفاق :
- يا للفتى المسكين ! انه يعني ذلك الوقت الذي كان فيه مختلّط
العقل تماما ، وهو لم يكف عن التحسر على تلك الحقبة ، حينما كان في
المارستان ، فاقد الوعي والرشد بكل شيء .
وصعقت لهذه الاجابة ، ووضعت في كفها قطعة نقد ، وأسرعت
بالابتعاد .

وفي طريقي مسرعا الى المدينة رحلت اقول لنفسي :
- لقد كنت سعيدا ! كأشد ما يكون البشر رضا وجورا !
يا اله السماء ! أهذا هو قدر الانسان ؟ الا يكون سعيدا الا قبيل
اكتسابه العقل او بعد فقدانه ؟ يا للمخلوق العائر الجذ ! ومع هذا اجذني
اغبطك على مصرك ، واغبط الوهم الذي انت فريسته . فانت تذهب
جذلانا كي تجمع الازهار لأمرتك في الشتاء ، وتحزن عندما لا تجد منها
شيئا ، ويعجزك ان تفهم لماذا لا تنمو الازهار في الشتاء . اما انا فأتجول
هناك بلا حبور ، وبلا أمل ، وبلا غاية ، وأعود كما ذهبت . وتتوهم اي
رجل انت خليك ان تغدو لو ان مجلس طبقات الامة نقدك راتبك . يا لك
من امرئ سعيد يستطيع ان يعزو شقائه الى سبب ذنوبي ! فانت لا
تدري ، ولا تشعر ان شقائك نابع من قلبك المشتت المخبول وعقلك المختل ،
وانه ما من قوة من قوى الارض يمكن ان تبرئك منه .

الا فليمت محروما من كل عزاء ذلك المرء الذي يمكن ان يسخر ويهزأ
من المرضى الذين ينزحون الى ينابيع الصحة النائية ، حيث لا يجدون في
الغالب الا مرضا أثقل وطأة وموتا أشد إبلا ، او الذي يمكن ان يتهلل
سخرية من ضمير الأثم القائظ الذي يلتمس الراحة من تعاسته فيذهب
حاجا الى القبر المقدس ، مع ان كل خطوة يخطوها بقدميه الجريحتين فوق
الدروب الوعرة غير المطروقة تسكب البنسّم في روحه المضطربة ، كما ان
مشاق الرحلة في النهار تجلب لقلبه المعنى راحة في هدأة الليل . انجسرون
ايها المنددون العيابون على تسمية هذا كله حماسة جوفاء ؟ حماسة ! يا
الهي ! انت ترى دموعي . وانت قد قسمت لنا نصيبنا من التعاسة : أفهل
كتب علينا ايضا ان يضطهدنا اخوتنا ، ويحرمونا من العزاء ومن ثقتنا بك
ومن محبتك ورحمتك ؟ لان ثقتنا بفعل العشب الشافي او بتأثير الكرمة
ان هو الا الاعتقاد بك ، يا من يستمد منك كل ما حولنا قواه الشاقية

والمقونة . ايها «الاب» الذي لست اعرفه - يا من تكرمتم فملأت قلبي وقتنا ما ، ولكنك الان تخفي وجهك عني - ادعني اليك مرة اخرى ، ولا تعنصم بالصمت ! ان صمتك لن يعوق روحا تتعطش اليك . فأي اب يمكن ان يفضب من ابنه لانه استدار انيه فجأة ، وسقط على عنقه ، هانفا :

- هاندا قد عدت اليك يا ابي ! اصفح عني ان كنت قد تعجلت الرحلة اليك ، ورجعت قبل الموعد المضروب ! ان العالم هو بعينه في كل مكان: مسرح هو للالم واللذة والجزاء ، ولكن ما حصاد هذا كله ؟ انسي لست سعيدا الا حيث تكون انت ، وفي حضرتك وحدك يرضيني ان أعاني او أفرح .

انت ايها الاب السماوي حقيق ان تطرد مثل هذا الابن من حضرتك ؟

اول ديسمبر

ان الرجل الذي كتبت اليك عنه يا فلهم - ذلك الرجل المضبوط على نكباته - كان سكرتيرا فيما مضى لوالد شارلوت ، وكان هواه التعمس لها ، الذي كان يخفيه ، ثم اماط اللثام عنه في النهاية ، هو الذي تسبب في طرده من عمله ، فأدى به ذلك الى الجنون . فكر - وانت تقرا بامعان هذه الحكاية الساذجة - اي انطباع تركته في نفسي ! ولكن القصصة بحذافيرها رواها لي البرت بكل الهدوء الذي لعلك تقرأها به .

ديسمبر

لقد انتهى امري ، ولم اعد أطيق هذا الحال اكثر من هذا . لقد كنت جالسا اليوم مع شارلوت ، وهي تعزف على البيانو مقطوعات بدیعة ، بتعبير عميق جدا . وكانت اختها الصغيرة تلبس دميتها ثوبها وهي جالسة في حجري . وطفرت الدموع الى عيني ، وانحنيت الى الامام ونظرت الى خاتم زواجها ، فتساقطت عبراتي ، وعلى الفور شرعت تعزف تلك المقطوعة الاثيرة القدسية التي كثيرا ما سحرتني . وشعرت بالراحة لتذكر الماضي، في تلك الايام الخوالي عندما كانت هذه المقطوعة مألوفة لي ، وعندئذ تذكرت كل الاحزان والاجباطات التي تحملتها من ذللك الحين . ورحت أزرع الحجرة بخطوات سريعة ، وغص قلبي بمشاعر الیعة . وأخيرا ذهبت

اليها ، وهتفت بها في لهفة :
- بحق السماء ، لا تعرفي هذه المقطوعة بعد الان !
توقفت ، ونظرت الي نظرة ثابتة ، ثم قالت بابتسامة غاصت في
اعماق قلبي :
- امريض انت يا فيرتر . . فاني ارى احب طعامك اليك قد صار
بغضاً . فأرجوك ان تذهب ، ليهذا جأشك .
فانتزعت نفسي من مجلسها انتزاعاً وانصرفت .
انت مطلع يا الهي على عذابني ، فاجعل له نهاية !

٦ ديسمبر

لكم يراودني طيفها ! فهي ملء روعي كلها يقظانا ونائما ! فما ان اغلق
عيني حتى اجد عينيها السوداءوين مطبوعتين ها هنا في مخي حيث تتركز
اعصاب البصر ، ها هنا ، ولست أدري كيف اصفها ، وكل ما اعرفه انني
متى اغمضت عيني وجدتهما مرتسمتين امامي ، داكنتين كالهواية ،
مفتوحتين ، تبتلعان كل حواسي !
وما الانسان - ذلك الشبيه بالاله ؟ افلا تخذله قواه حين يكون أحوج
ما يكون اليها ؟ وسواء اخلق في الحبور ، او غرق في الاحزان ، اترى له
من قدره مفر ؟ وبينما يحلم انه قابض على الابدية ، افلا يشعر باضطرابه
للمودة الى الوعي بوجوده البارد الريب ؟

الكتاب الثالث

من الناشر الى القارئ :

مما يُؤسف له حقا انه تموزنا الوثائق الاصلية عن الايام الاخيرة فسي حياة صاحبنا ، ولذا نجد انفسنا مضطرين لقطع اتصال سياق رسائله ، وتعويض هذا النقص عن طريق السرد والرواية .

وقد رأيت من واجبي ان اجمع المعلومات الدقيقة من افواه اشخاص ذوي دراية بتاريخه . والقصة نفسها بسيطة ، وكل الروايات متفقة ، اللهم الا في تفصيلات غير هامة ، وان كانت الآراء والاحكام متباينة فيما يتعلق بطباع الاشخاص الذين يأتي ذكرهم فيها .

فليس امامنا اذن الا ان نروي بامانة تلك الوقائع التي اتاح لنا الجهد الدائب ان نجتمعها ، وان نقدم خطابات الفقيد الراحل ، مع التنبه بصفة خاصة الى اي شذرة صدرت من قلمه ، ولا سيما انه من العسير اكتشاف الدوافع الحقيقية والصحيحة لأناس ليسوا من الطراز الشائع بين البشر.

لقد ضربت جذور الحزن والاسى والسخط في مسارب عميقة من نفسي فيرتز ، وأضفت سماتها على كيانه كله ، واختل تناسق تفكيره ، وكان للانارة المتواصلة والاهتياج العقلي اللذين اضعفا قواه الطبيعية اسوا الآثار والنتائج على نفسيته ، مما صيره في نهاية المطاف فريسة اعياء كان

يكافحه مجهود أشد أيلاما مما كان يبدو عليه في الظاهر ، حتى وهو يناضل ضد تكبائه الأخرى . فقد أضعف قلقه النفسي ملكاته الجيدة المتباينة ، وسرعان ما انتهى الى الكآبة والانقباض من صحة الناس ، فهو دائما حائر غير موفق في افكاره ، مع تزايد تعاسته وشقائه . وهذا على الأقل هو رأي اصدقاء البرت . ويؤكدون في الوقت نفسه ان طبع البرت لم يحدث فيه ادنى تغير ، فظل هو بعينه الشخص الذي احبه فيرتز وبجمله واحترمه منذ البداية . وكان حبه لشارلوت بغير حدود ، وكان فخورا بها ، راغبا في ان يقر لها كل انسان بانها انبل المخلوقات . أهمل يلام مع هذا لانه اراد ان يجنبها كل مظهر من مظاهر الريبة ؟ او لانه لم يكن مستعدا ان يشارك في كنزه الثمين هذا احدا سواه ، ولو للحظة واحدة ، ولو بصورة بريئة كل البراءة ؟ وقد ثبت ان البرت كثيرا ما كان ينسحب من جناح زوجته اثناء زيارات فيرتز ، بيد ان ذلك لم يكن عن نفور من صديقه ، بل عن احساس بأن وجوده كان يثقل على فيرتز .

وكان من عادة والد شارلوت - الذي يلزم البيت لاعتلال صحته - ان يرسل اليها عربته كي تقوم بنزهات في الانحاء المجاورة ، وذات يوم كان الطقس بالغ العنف ، فغطى الثلج الريف بأكمله ، وتوجه فيرتز لزيارة شارلوت في الصباح التالي كي يعود بها الى البيت اذا كان البرت متغيبا . ولم يكن الطقس الجميل يترك لديه الا اثرا ضئيلا بسبب اضطرابه النفسي ، فثمة عبء ثقيل الوطأة يرين على روحه ، بعد ان هيمنت الكآبة عليه ، فلم تعد نفسه تعرف التغير الا من خاطر اليم الى خاطر اليم اخر .

ولما كان قد صار منقطع الصلة بالسلام الداخلي ، لذا غدت احوال الناس مصدرا مستمرا للاضطراب والكرب وكان يعتقد انه كدر صفو سعادة البرت وزوجته . وفي حين راح يلوم نفسه بعنف على هذه الجريفة ، شرع ايضا يكن في سريرته بغضا خفيا للبرت . وكانت افكاره تتجه احيانا الى هذه النقطة ، فيكرر لنفسه في سخط

لا يحسن كتمانها :

- نعم ، نعم . هذا بعد كل شيء هو مدى ذلك الحب الحنون الغالي المعطوف المتعاطف ، وذلك الوفاء الهادئ الابدي ! ما هذا الذي أشهده ان لم يكن هو الشبح وعدم الاكتراث ؟ اليس كل ارتباط تافه القيمة أشد اجتذابا له من زوجته الفاتنة الحسناء ؟ انراه يعرف قيمة سعادته ؟ أبغليها بالقدر الذي تستحقه ؟ انه يملكها ، هذا صحيح - وأنا اعرف هذا ، مثلما اعرف ما هو اكثر منه بكثير - وقد تعودت التفكير في انه سيدفع

بي الى الجنون ، او لعله مزعم ان يقتلني . فهل صداقته لي سليمة لا آفة فيها ؟ اليس يرى في تعلقي وارتباطي بشارلوت افئتاناً على حقوقه ؟ الا يعد اهنمامي لها توبيخاً صامتاً له ؟ انا اعرف ، وأحس فعلاً ، انه يبغضني ، وانه يتمنى غيابي ، وان حضوري بغيض الى نفسه .

وكثيراً ما كان يتوقف وهو في طريقه الى زيارة شارلوت ، ويلبث ساكناً في موضعه نهياً للشك ، وتبدو عليه الرغبة في العودة ، بيد انه مع هذا يمضي في طريقه اليها . ويصل في النهاية الى مقر الصيد غارقاً في هذه الخواطر والمناجاة التي وصفناها الان ، موزع النفس ...

وذات مرة دخل البيت ، وسأل عن شارلوت ، فلاحظ ان اهل الدار كانوا في حالة ارتباك غير مألوف . وقال له الولد ان كارثة فظيعة وقعت في فالهايم ... فقد قتل احد الفلاحين ! بيد ان ذلك لم يترك في نفسه الا انرا ضئيلاً . ودخل الحجرة فوجد شارلوت مشتعلة في جدل مع ابها الذي اصر - رغم علته - على الذهاب الى مسرح الجريمة كي يجري التحقيق . وكان المجرم مجهولاً ، وقد عثروا على الضحية ميتاً على باب مسكنه هذا الصباح . واثارت الشكوك ، فالقتيل كان في خدمة ارملة ، والشخص الذي سبقه في شغل هذا العمل كان قد فصل منه .

وما ان سمع فيرتر هذا النبأ حتى صاح باهتياج :

- أهذا ممكن ؟ لا بد ان اذهب الى موضع الحادث ، لا استطيع الابطاء لحظة واحدة !

وأسرع فعلاً الى فالهايم ، وانتعشت في ذاكرته جميع التفاصيل ، ولم يخالجه شك في ان يكون القاتل هو بعينه ذلك الرجل الذي كثيراً ما تحدث اليه ، وكان يهتم به اهتماماً عظيماً ويقدره كثيراً . ومر في طريقه بشجار الزيزفون المعروفة ، متجهاً الى البيت الذي حملت اليه الجثة ، فثارت مشاعره عندما وقع بصره على البقعة الاثيرة لديه . وكانت العتبة التي كثيراً ما لعب اطفال الجيران فوقها ملطخة بالدم . فقد انقلب الحب والوله وانبل مشاعر الطبيعة البشرية الى العنف والقتل . وها هسي الاشجار الضخمة ماثلة هناك ، بلا اوراق ، يكسوها الثلج ، وقد ذبلت نباتات السور المحيط بفناء الكنيسة . وكانت شواهد القبور ظاهرة من بين فتحات السور ، وقد تنثر عليها الثلج وكاد يغطيها .

ولما اقترب من الخان الذي كانت القرية كلها قد تجمعت امامه سمعت فجأة اصوات صياح . وكانت فصيلة من الفلاحين المسلحين قد شوهدت

تقترب من هناك، وكل واحد منهم يصيح ان المجرم قد قبض عليه ، وألقى فيرتر بصره وزايله كل شك ، فلم يكن الرجل سوى ذلك الخادم ، الذي كان فيما مضى شديد التعلق بالارملة والذي كان قد التقى به في تجواله ممعنا بذلك الفضب المكبوت واليأس المخامر ، على النحو الذي اوردناه آنفا .

وسأله فيرتر وهو يدنو منه :

— ما هذا الذي صنعت ايها التمس ؟

فتوجه الرجل نحوه بنظراته في صمت ، ثم اجاب بهدوء شديد :

— لن يتزوجها الان احد ، ولن تتزوج هي احدا .

وادخلوا الجاني بعد ذلك الى الخان ، وغادر فيرتر المكان .

وكانت نفس فيرتر قد استثيرت واهتاجت لهذا الحادث الفظيع بيد انه لم يعد يحس ما يكره عادة من الشعور بالكآبة وعدم الاكتراث بكل ما يدور حوله . وانتابه احساس قوي بالرثاء والرحمة لهذا الرجل ، واستولى عليه هم وقلق لا يوصف تلهفا على انقاذه من المصير الذي يوشك ان يحيق به . فقد كان يعدد انسانيته تكالب عليه سوء الطالع والشقاء ، فهو في نظره معذور فيما اقترف من جرم . بل كان يرى حالته شديدة الشبه بحالة هذا المتهم . ولذا استولى عليه اقتناع بأن في وسعه ان يجعل كل انسان اخر يرى هذه المسألة في نفس الضوء الذي يراها فيه شخصيا . واصبح شديد التلهف على تولي الدفاع عنه ، وشرع يدبج خطبة بليغة لهذا الغرض ، وفي طريقه الى مقر الصيد لم يستطع كبح نفسه عن التحدث بصوت مرتفع بنص الكلمة التي قرر ان يدلي بها الى القاضي .

وعند وصوله الى بيت الصيد الفى البرت قد سبقه الى هناك ، فارتج عليه قليلا بسبب هذا اللقاء ، بيد انه سرعان ما سيطر على رباطة جأشه ، وأدلى الى القاضي برأيه في حرارة بالغة . وراح القاضي يهز رأسه متشككا ، ومع ان فيرتر دافع عن اعتقاده بمنتهى البراعة وبكل الهمسة والحماسة والتصميم على استنقاذ المتهم ، الا ان القاضي — كما هو متوقع — لم يتأثر كثيرا بهذه المناشدة ، بل على العكس قاطعه وهو مندفع في خطابه ، وجادله بجدة ، بل رأى من واجبه ان يقرعه لتطوعه بالدفاع عن قاتل . وقال له انه تأسيسا على هذه السابقة يتعرض كل قانون للانتهاك وفي هذا ما فيه من تخريب الامن العام والقضاء عليه قضاء مبرما . وقال له ايضا ، انه فضلا عن هذا كله لن يستطيع شخصا عمل شيء في مثل

هذه القضية من غير ان يعرض نفسه لاعظم المسؤولية ، وان كل شيء ينبغي ان يتخذ المسار المألوف ، ويمضي على النهج المعهود .

ولكن فيرتر لم يقلع عن محاولته ، بل وعرض على القاضي ان يستر على فرار السجين ، الا ان هذا الاقتراح لقي الرفض البات على الفور . وكان البرت قد اشترك في جانب من المناقشة ، واتفق في الرأي مع القاضي ، وعندئذ هاج غضب فيرتر ، وانصرف وهو في حالة ثورة شديدة ، بعد ان اكده له القاضي اكثر من مرة انه لا سبيل الى انقضاء المتهم .

ويمكننا استخلاص مبلغ حزنه الشديد عند سماع هذا التأكيد من نص مذكورة وجدت بين اوراقه ، ولا شك في انها كتبت في تلك المناسبة :
- لن يمكن انقاذ ايها التعس العائر الجذ ! واني لأرى الان بوضوح انه لا سبيل الى خلاصنا !

وكانت ملاحظات البرت التي ابداهها للقاضي بشأن موضوع المتهم قد حفزت مشاعر فيرتر حفزا شديدا ، وخيل اليه انه استطاع ان يتسقط في هذه الملاحظات شيئا من الماراة ازاءه شخصيا . ومع انه اذا ما عمل فكره في روية ما كان ليغيب عن حكمه الصائب ان وجهته نظر البرت والقاضي كانت سليمة ، الا انه وجد مضاضة شديدة جدا في الاقرار بشيء من ذلك .

وقد وجدت بين اوراق فيرتر مذكورة في هذا الصدد ، تعبر عن مشاعره بصفة عامة تجاه البرت :

- وما جدوى تكراري باستمرار انه رجل طيب وجدير بالتقدير ، انه عذاب داخلي لي ، وانا عاجز عن ان اكون منصفاً بخصوصه .
وذاذ مساء من أمسيات الشتاء ، وقد بدا ان الجو ميال للدفع ، كانت شارلوت والبرت عائدتين الى بيتهما معا ، وظلت شارلوت تتلفت فيما حولها بين الحين والحين ، وكأنها تفتقد صحبة فيرتر . وشرع البرت في الحديث عنه ، وانحى باللائمة على تحيزاته . وألح الى تعلقه العائر الجذ بها ، وتمنى لو كان في الامكان فصم صفة التعارف بينهما ، وبينه ، وأردف :

- اتمنى هذا لمصلحتنا ، وانا شاك ان ترغيمه على تغيير سلوكه نحولك، وان يقلل من زيارته لك . فالتاس نقادون لوامون ، وأنا أعلم اننا موضوع حديثهم هنا وهناك .

ولم تجبه شارلوت ، وبدا ان البرت يشعر بصمتها . وعلى الاقل منذ

ذلك الحين لم يعد للكلام قط عن فيتر ، وكان اذا طرقت الموضوع يترك الحديث عنه يموت ، او يوجهه وجهة اخرى .
وكانت المحاولة الفاشلة التي قام بها فيتر لانقاذ القاتل الشقي هسي اخر خفقة واهنة لتسعة توشك ان نخمد . فقد استولت عليه بعد ذلك فورا تقريبا حالة من الوجود والجمود ، الى ان اضطرب تمام الاضطراب حين علم انه سيدعى للشهادة ضد المتهم الذي ادعى البراءة التامة .
واخذت نفسه تعاني القهر من ذكرى كل الجدود العائرة والنكبات التي مرت به في ماضي حياته . فالهوان الذي مني به في صجة السفير ، ثم متاعبه اللاحقة ، بعثت حية في ذاكرته ، واقعده ذلك عن كل نشاط ، وزايلته همته ، وانقطع عن مزاوله كل ألوان الشواغل التي يتكون منها نسيج الحياة العادية ، وصار فريسة وساوسه الخاصة وعاطفته المقيمة المفعدة لاحب النساء وارقهن ، وهي التي دمر هدوءها وسلامها النفسي .
وانقضت ايامه في تلك الرتبة التي لا تعرف التباين ، وانهكت قواه بدون هدف او غاية ، الى ان انتهت به نهاية اسيفة .
ونمة خطابات قلائل تركها من بعده ، نوردها هنا ، وهي خير دليل على قلقه النفسي واضطراب تفكيره وعمق عاطفته ، كما انها خير دليل ايضا على شكوكه وهواجسه وصراعاته وسأمه الحياة .

١٢ ديسمبر

عزيزي فلهم .
لقد اصبح حالي حال اولئك التعمساء العائري الحظ الذين يعتقدون انهم فريسة روح شرير يتعقبهم ، فأحيانا يستولي علي ، لا احساس بالتوجس والخوف ، بل اثارة داخلية لا يمكن وصفها ، تثقل على قلبي ، وتعترض انفاسي ! عندئذ أضرب في الارض ليلا ، حتى في هذا الموسم العاصف ، واجد لذة في تأمل المشاهد الرهيبة من حولي .
وامس مساء خرجت وتجولت ، وكان دفاً سريع يذيب الثلوج قد حل علي حين غرة ، وقيل لي ان مياه النهر ارتفعت ، وان جميع الجداول قد فاضت على ضفافها ، وان وادي فالهايم قد اصبح كله تحت الماء ! ومع دقات انتصاف الليل اسرعت بالخروج ، فرأيت منظراً مخيفاً ، فالسيول الهادرة كانت تتدفق من اعالي الجبال في ضوء القمر ، والحقول والمراعي والاشجار والاسوار النباتية اختلط بعضها ببعض ، وانقلب الوادي كله الى

بحيره عميقة الفور ، تضطرب مياهها تحت سياط الرياح المزمجرة . ولما
سطع ضوء القمر ، وصيغ السحب الداكنة باللون الفضي وأرغت السيول
العارمة وأزبدت تحت قدمي باندفاع عظيم مخيف ، استولى علي احساس
غريب يجمع بين التوجس والحيور ، وبدراعين مفتوحتين حددت من تحتي
في الهوة التي ففرت فاها وصحت :
— ثب ! غص !

وتخلت عني حواسي لحظة في غمار الفرح العميق بوشك انتهاء احزاني
وآلامي بوتبة واحدة اغوص بها في تلك الهاوية ! ثم احساست وكأنني قد
تسمرت في الارض فمجزت عن وضع نهاية لعذابي ! ان ساعتني لم تحن
بعد . اشعر بذلك الان . آه يا فلهم ، لكم كنت خليقا ان اتخلي طواعية
عن وجودي ، كي اركب دوامة الرياح ، او لأعاني السيل المنحدر الطامي !
او ليست النسوة مسيرة عندئذ ان تكون من نصيب هذا الروح الطليق ؟
وأدرت عيني الاسوانتين الاسيفتين صوب بقعة انسيمة ، حيث كنت
متعودا ان اجلس مع شارلوت تحت صفصافة بعد مسيرة مجهدة .
وا اسفاه ! لقد غمرتها المياه ، وبكل صعوبة تسقطت عيني المرمي .
ونكرت في الحقول المحيطة بمقر الصيد . اترى دمرت هذه العاصفة التي
لا ترحم عريشتنا الغالية ؟ وعندئذ تفرقت على نفسي شعاعة من سعادي
الغابرة ، على نحو ما تشرق نفس الاسير حينما تحلم بالقطعان والاسراب
ومسرات موطنه الماضية ! ولكنني خلي من الكلام . . ولدي الشجاعة
والاقدام على الموت ! أجل لعلها لدي . . . بيد اني لم ازل جالسا ها هنا ،
كالمسولة النعسة التي تجمع الحطب ، وتستجدي الخبز من باب الى باب ،
كي تطيل لبضعة ايام معدودات حياة شقية لا تطاوعها نفسها على التخلي
عنها .

١٥ ديسمبر

ماذا دهاني يا عزيزي فلهم ؟ خائف انا من نفسي ! او ليس حبي انا
من اتقى واندس العواطف الاخوية ؟ هل تدنس نفسي ابدًا برغبة حسية
او شهوانية واحدة ؟ ولكنني لن أدافع عن نفسي ولن أحتج . والان اينها
الرؤى الليلية ، لكم اصاب فهمك اولئك البشر الفانون الذين عزوا تأثيراتك
المتناقضة الى قوى لا تقهر ! الليلة — واني لأرتجف وانا اعترف بهذا —

ضممتها بن ذراعي ، في عناق قوي لا فكاك منه ، أجل ضممتها السى
صدري وغمرت قبلات لا تحصى هاتين الشفتين الغاليتين اللتين كانتا
نجيباني بأرق الفاظ الحب . وزاغ بصري وغام سكرًا بخمر عينيها
الرائعتين . رباه ! أخطئة هي ان انتشي مرة اخرى بمثل هذه السعادة ،
وان استعيد مرة اخرى تلك اللحظات العلوية بأشد ما يكون من الجذل
والجور ؟ شارلوت ! شارلوت ! لقد ضعت ! حواسي مختلطة ،
وذكراتي مبللة ، وعيناي غارقتان في الدموع - مريض انا ، ولكني لم
ازل مع هذا صحيحا معافي - لا اتمنى شيئا ، ولا ارجو شيئا ، ولا
اشتهي شيئا ... الا انه كان خيرا لي وأولى ان أرحل عن الدنيا .
وفي الظروف المذكورة آنفا سيطر على نفس فيتر العزم على مغادرة
هذا العالم . ومنذ عودة شارلوت صارت هذه الفكرة غاية جميع آماله
وأمانيه ، بيد انه قرر ان مثل هذه الخطوة ينبغي ألا تتخذ في تسرع ، بل
بهدوء وطمأنينة ، وبأقصى ما يمكن من الروية .
ويمكننا ان نفهم متاعبه وصراعاته الداخلية من الشذرة التالية ، التي
وجدت - بغير تاريخ - بين أوراقه ، ويبدو انها كانت بداية رسالة الى
فلهم :

.

حضورها ، وقدرها ، وتعاطفها نحوي ، لم تنزل لها القدرة على
استدرار الدموع من رأسي الواهن .
يرفع المرء الستار ، ويمر الى الجانب الآخر - وهذا كل شيء !
ولماذا كل هذه الشكوك والمطل ؟ لاننا لا ندري ماذا وراء الستار .. لانه لا
عودة من هناك - ولأن عقلنا يستنتج ان كل شيء هناك ظلام وفوضى ، ما
دام ليس تحت يدنا شيء قاطع .



وأخيرا تغير منظره كثيرا ، بتأثير افكاره المكتئبة ، واتخذ أخيرا قراره
النهائي الذي لا رجعة فيه ، الذي لعل الرسالة الغامضة التالية التي
وجهها الى صديقه تقدم الدليل عليه .

٢٠ ديسمبر

اني مدين لك بالعرفان لما تكنه لي من حب يا فلهم ، ولنصائحك الرصينة المتكررة . اجل ، انت على صواب ، فمن الافضل بلا شك ان ارحل . بيد اني لا اوافق تمام الموافقة على مشروعك بالعودة فوراً الى جوارك ، لاني اريد على الاقل ان اقوم برحلة صغيرة في الطريق اليك ، ولا سيما اننا نتوقع الان صقيعا متواصلا ، مما يجعل الطرق جيدة . وانا مسرور جدا بانتوائك القدوم لاحضاري ولكن ارجى رحلتك اسبوعين ، وانتظر رسالة اخرى مني ، فلا ينبغي للمرء ان يقطع ثمرة قبل اوانها ، واسبوعان من التبكير او التأخير يخذلان فارقا كبيرا . ناشد والدتي ان تصلي لاجل ولدها ، وقل لها اني استغفرها لكل الشقاء الذي سببته لها . فقد كان قدرتي دائما ان اسبب الالم لمن كان ينبغي ان ازيد في سعادتهم وداعا يا أعز صديق . ولتحل عليك كل بركات السماء ! وداعا .



واننا لنجد مشقة في التعبير عن المشاعر التي جاشت بها نفس شارلوت خلال هذه الفترة من الزمن ، سواء اكان ذلك فيما يتعلق بزواجها ، او بصديقها المنكود ، وان كانت معرفتنا بطبيعتها تتيج لنا ان نفهم طبيعة هذه المشاعر .

ومن المقطوع به انها كانت قد اعتزمت بكل ما تحت سلطانها من وسائل ان تجعل بينها وبين فيرتر ضربا من المباعدة ، ولئن ترددت في قرارها هذا فعن شعور صادق بالرحمة والمودة ، لعلمها بمبلغ ما سيكلفه ذلك القرار من عنق . بل انه كان خليقا ان يجد ما يشبه الاستحالة في الانقياد لرغبتها . الا ان اسبابا متباينة حثتها على اتخاذ خطوة الحزم معه . وكان زوجها قد لزم الصمت التام حول المسألة كلها ، ولم يجعلها هي موضوعا للحديث قط ، لشعورها ان من الواجب اللزام عليها ان تثبت له بسلوكها ان رأيها محقق مع رايه ، ومشاعرها متفقة مع مشاعره .

وفي نفس ذلك اليوم ، الذي كان يوم الاحد السابق على عيد الميلاد ، جاء فيرتر الى بيت شارلوت ، بعد ان كان قد كتب الخطاب الذي اوردناه آنفا الى صديقه ، فوجدها بمفردها . وكانت مشغولة باعداد بعض الهدايا الصغيرة لاختوها وأخواتها ، كي توزعها عليهم يوم عيد الميلاد . وشرع فيرتر

يتكلم عن حبور الاطفال ، وعن تلك المرحلة من العمر التي يسبب فيها ظهور شجرة عيد الميلاد ، مزينة بالفاكهة والحلوى ، ومضاءة بالشموع ، هزة فروح . فقالت شارلوت ، مخفية حرجها تحت ابتسامة عذبة :

— وانت ايضا ستنال هدية ، ان احسنت السلوك .

فقال :

— وما هذا الذي تسمينه سلوكا حسنا ؟ ماذا ينبغي ان اصنع ؟ وماذا يسعني ان اصنع يا عزيزتي شارلوت . .

فاجابته :

— مساء الخميس يوافق ليلة عيد الميلاد . وسيكون الاطفال جميعا هنا ، وكذلك ابي . وهناك هدية لكل واحد من الحاضرين . فتعال انت ايضا ، ولكن لا تأت قبل ذلك الحين .

فأجفل فيرتر ، فأردفت قائلة :

— أريد منك الا تحضر قبل ذلك الوقت ، فلا بد من هذا . اني اطلبه منك خدمة لي ، فليس في وسعنا ان نمضي على هذه التوترية بعد الان . . .

فأشاح عنها بوجهه ، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يغمغم بلفظ غير مبين :

— ليس في وسعنا ان نمضي على هذه التوترية بعد الان !

ولما ابصرت شارلوت ذلك الاضطراب العنيف الذي غمرته به هذه الكلمات ، حاولت ان تصرف ذهنه عن التفكير فيها بأسئلة مختلفة ، ولكن جهودها ذهبت هباء ، وصاح :

— كلا يا شارلوت ! لن اراك بعد الان !

فأجابته :

— ولم هذا ؟ في وسعنا . . بل يجب ان يرى كل منا الآخر ، ولكن اجعل ذلك مقترنا بمزيد من الحرص ! اوه ! لماذا ولدت بهذا الولع المفرط الجامح بكل ما هو عزيز عليك .

ثم تناولت يده وقالت :

— اناشدك ان تهدأ ، ولسوف تمدك مواهبك . وفهمك ، وعبقريتك بمدد لا ينفد . كن رجلا واقهر تعلقا تمسا لمخلوقة لا تستطيع لك شيئا ، اللهم الا الاشفاق عليك والثناء لك .

فعض شفتيه ، ونظر اليها بسحنة واجمة ، واستمرت هي ممسكة بيده وقالت :

— اعرني لحظة صبر يا فيرتر . ألسنت ترى انك تخذع نفسك وانك

تسمى الى حتفك بظلفك ؟ لماذا لا بد لك من حبي ، انا وحدي ، التي
انتمي الى رجل اخر ؟ اني لآخسى ، واخشى كثيرا ، ان تكون استحالة
الحصول عليّ هي التي تجعل رغبتك في هذه القوة !
فجذب يده من يدها ، وهو يتفحصها بنظرة ضارية غاضبة وصاح :
- حسن هذا ! حسن جدا ! اليس البرت هو الذي زودك بهذه
الفكرة ؟ انها للملاحظة عميقة . عميقة جدا .
فأجابته :

- انها فكرة يمكن ان تخطر لاي انسان بسهولة . وهل لا توجد في
العالم كله امرأة حرة وقادرة على اسعادك ؟ اقهر نفسك ، وابحث عن مثل
هذه المخلوقة ، وصدقني وانا اقول لك انك واجدها حتما . لقد شعرت
منذ امد طويل انك حبست نفسك اطول مما ينبغي داخل حدود دائرية
غاية في الضيق . اقهر نفسك ، وابذل جهدا ، وقم برحلة قصيرة ،
فسوف تجدني عليك جدا . وانشد واعثر لنفسك على موضوع جذير
بحبك ، ثم عد الى هنا ودعنا نستمتع معا بكل السعادة التي تتيحها اكمل
صداقة .

فأجابها فيرتر بابتسامة باردة :

- هذه الخطبة جديرة بأن تطبع ، ليفيد منها جميع المعلمين .
فاسمحي لي يا عزيزتي شارلوت بمهلة قصيرة اخرى ، يكون بعدها كل
شيء على ما يرام .
فقالت :

- ومع هذا يا فيرتر ، لا تعد قبل عيد الميلاد .

وأوشك ان يجيبها بشيء ما ، واذا بالبرت يدخل . وحيا كل منهما
صاحبه بفتور ، وفي حرج متبادل راح كل منهما يذرع الحجر . وادلى
فيرتر ببضع ملاحظات شائعة المعنى ، وكذلك صنع البرت ، وسرعان ما
انقطع بينهما الحديث ، وسأل البرت زوجته في بعض شئون البيت ، ولما
وجد بعض مطالبه لم تنفذ ، استخدم تعبيرات بدت في اذني فيرتر باللغة
الخشونة ، واراد ان ينصرف ، ولكنه لم يجد القدرة على الحركة . وظل
على هذا الوضع حتى الساعة الثامنة ، وضيقه وسخطه يتزايدان .
واخيرا اعدت المائدة للعشاء ، فتناول عصاه وقبعته . ودماه البرت للبقاء ،
ولكن فيرتر حسبه يؤدي مجاملة شكلية ، فشكره بفتور وغادر البيت .
وعاد فيرتر الى البيت ، وتناول الشمعة من خادمه وأوى الى حجرته
بمفرده ، وظل برهة يتحدث الى نفسه بكل حرارة ، وبكى بصوت مرتفع ،

وتمشى في الحجرة باهتياج شديد . واخيرا القى بنفسه - من غير ان يخلع ثيابه - على الفراش ، حيث وجده خادمه في الساعة الحادية عشرة ، عندما غامر بدخول الحجرة لخلع حذائه . ولم يمنعه فيتر من ذلك ، ولكنه نهاه عن الدخول عليه في الصباح الى ان يدق له الجرس . وفي صباح الاثنين ٢١ ديسمبر كتب الى شارلوت الرسالة التالية ، التي وجدت مختومة على مكتبه بعد وفاته ، فسلمت اليها . وسأورد هنا في صورة شذرات ، حيث انه يبدو من ظروف عديدة انها كتبت على ذلك النحو :

- انتهى كل شيء يا عزيزتي شارلوت ، فقد قررت ان اموت ! واني اتخذ هذا القرار بأناة وروية وبرود اعصاب ، لا عن عاطفة رومانسية ، في صباح ذلك اليوم الذي سأراك فيه للمرة الاخيرة . ففي الوقت الذي تطالعين فيه هذه السطور ، يا خير النساء ، يكون القبر البارد قد ضم رفاتا هامة هي رفات ذلك المخلوق القلق التعس الذي لم يعرف في اخر لحظات وجوده لذة تضارع حديثه معك ! لقد امضيت ليلة رهيبة ، بل الاولى ان اقول ليلة مبشرة بالخير ، لانها اتاحت لي العزيمة ، وحددت لي غايتي . لقد اعتزمت ان اموت ، فعندما انتزعت نفسي منك بالامس كانت حواسي مشوشة مختلة ، وقلبي مكروبا ، وقد هرب مني الامل والسرور الى الابد ، واستولت على كياني التعس برودة مروعة . فلم اكسد استطيع الوصول الى حجرتي ، وهناك جثوت على ركبتني ، وجادت علي السماء لآخر مرة بعزاء الدمع المنهمر . واثارت في نفسي الف فكرة .. الى ان استولت اخر الامر على فؤادي فكرة ثابتة نهائية ان اموت ! فاستلقيت لاستريح ، وفي الصباح ، في ساعة اليقظة الهادئة ، وجدت ذلك التصميم نفسه مسيطرا علي : ان اموت ! انه ليس اليأس ، بل الاقتناع بأن كيل عذابي قد طفق ، واني وصلت الى اجلي المحتوم ، ولا مناص من تضحيتي بنفسي في سبيلك . اجل يا شارلوت ، ولم لا أعترف بذلك لك ؟ احدها نحن الثلاثة لا بد ان يموت ، وهذا الواحد سيكون فيتر . اي شارات المحبوبة ! ان هذا القلب الذي يجيش بالغضب كثيرا ما خامره ان يقتل زوجك - او يقتل نفسي ! واخيرا خرج السهم . وفي امسيات الصيف الصافية الهادئة ، عندما تتجولين احيانا صوب الجبال ، فكري في ، وتذكرني كيف كنت ترقبيني وانا قادم لالقاءك من الوادي . ثم وجهي ناظريك الى فناء الكنيسة التي تضم لحدي ، وفي ضوء

الشمس الغاربة لاحظي كيف يحرك النسيم العشب الطويل النامي فسوق
قبري . لقد كنت هادئا عندما بدأت هذه الرسالة ، ولكن ذكرى هذه
المشاهد جعلتني ابكي كالطفل .



وحوالي الساعة العاشرة صباحا استدعى فيرتر خادمه ، واخبره - وهو
يرتدي ملابسه - انه ينوي الانطلاق في رحلة بعد بضعة ايام ، ولذا امره
ان يرتب له ثيابه ، ويعدّها للحزم ، وان يسدد جميع حساباته ، ويسترد
جميع كتبه التي كان قد اقترضها ، وان يعطي راتب شهرين للفكــــراء
والمعوزين الذين تعودوا ان يتقاضوا منه معونات اسبوعية .
وتناول بعد ذلك افطاره في حجرته ، ثم امتطى صهوة جواده وتوجه
لزياره ناظر الزراعة ، فلم يجده في البيت . فراح يتمشى متفكرا في
الحديقة ، وبدا متلهفا على تحديد جميع الافكار المؤلة له اشد الابلام .
ولم يتركه الاطفال وحده وقتا طويلا ، بل تتبعوه وراحوا يتراقصون
حوله ، واخبروه انهم بعد غد ، وغدا ، ويوما اخر بعد ذلك ، سيتلقون
هداياهم لعيد الميلاد من شارلوت ، وراحوا يحصون له الاعاجيب التي
تخيلتها عقولهم الطفلة . فقال :

- غدا ... وبعد غد ، ويوما بعده ايضا !

وقبلهم بحنان . وهم بالانصراف ، بيد ان الولد الاصغر استوقفه كي
يهمس بشيء في اذنه . قال له ان اخوته الاكبر منه كتبوا تمنيات جميلة
للعام الجديد - كبيرة جدا - احداها لبابا ، واخرى لشارلوت والبرت ،
وثالثة لفيرتر . وان هذه التمنيات ستقدم في الصباح الباكر من يوم
رأس السنة . فتأثر فيرتر لهذا اعظم التأثر ، وأعطى كل واحد من الاطفال
هدية ، ثم ركب حصانه وترك تحياته لبابا وماما ، وغادر المكان والدموع
تجول في عينيه .

وعاد الى البيت في نحو الساعة الخامسة ، فأمر خادمه ان يبقي ناره
مشتعلة ، وان يحزم كتبه وثيابه الداخلية في قاع الحقيبة الضخمة ،
وان يضع معاطفه على وجه الحقيبة ، ويبدو انه كتب بعد ذلك الاضافة
التالية لرسالته الى شارلوت :

- انت لا تتوقعين قدومي . وتعتقدين اني سأطيعك ولا اعود لزيارتك
حتى ليلة عيد الميلاد . اوه يا شارلوت . اما أن ازورك اليوم او لن ازورك

ابدا ! ففي يوم عيد الميلاد سوف نمسكين بهذه الورقة في يدك ،
وسترنجفين وتبليلينها بدموعك . سأفعل ذلك - لا بد ! اوه ! ما
أسعدني بالتصميم !

وفي هذه الاثناء كانت شارلوت في حالة نفسية تثير الاشفاق . فبعد
حديثها الاخير مع فيرتر ادركت مبلغ ما ينطوي عليه منعه عن زيارتها من
ايلام لها ، وادركت كم سيكون هذا التفريق بينهما شديدا الوطاة عليه .
وكانت في حديث مع البرت قد اشارت عرضا الى ان فيرتر سوف لا
يعود قبل ليلة عيد الميلاد . وبعد ذلك بقليل ذهب البرت على صهوة جواده
لزيارة شخص من اهل الجيرة كانت بينهما صفقة عمل سوف تستبقيها
عنده طول الليل .

وكانت شارلوت جالسة بمفردها ، وليس بقربها احد من افراد
اسرتها ، فأسلمت نفسها للأفكار التي استولت على ذهنها . وهي مرتبطة
الى الابد بزواج جربت حبه واخلاصه لها ، وهي متعلقة به تعلقا قلبيا ،
حتى انه يبدو لها هدية خاصة من السماء لضمان سعادتها وتأمينها .
ومن جهة اخرى صار فيرتر عزيزا عليها ، وبينهما مشاركة عاطفية حميمة
نشأت منذ اول ساعة التقيا فيها . ثم ان اجتماعاتهما ومقابلاتهما المتكررة
تركت في فؤادها اثرا لا يمحي . وقد تعودت ان تفضي اليه بكل خاطر
وكل شعور يخالجه ، حتى صار غيابها يهددها بايجاد فجوة من الخواء
في حياتها ربما كان من المستحيل ملؤها . ولكم تمنى من صميم قلبها لو
استطاعت ان تحوله الى اخ لها ، وان تفرجه او تستدرجه الى الزواج من
احدى صديقاتها ، او يعيد المودة الحميمة بينه وبين البرت .
وراحت تستعرض بعين خيالها صديقاتها الحميمات ، بيد انها وجدت
وجه اعتراض على كل واحدة منهن ، فلم يستقر رأيها على اي واحدة منهن
كي ترتضيها له .

وفي غمار هذه الاعتبارات شعرت شعورا عميقا - وان كان غميرا
متميز - ان رغبتها الحقيقية التي لا تريد الانفصال عنها ان تستبقيها
لنفسها . وانتاب فؤادها الطاهر الودود من جراء هذا الخاطر احساس
بالضيق يكاد يحرم عليها كل توقع للسعادة . وابتأست ، وخيمت على
رؤيتها العقلية سحابة سوداء .

وكانت الساعة منتصف الساعة ، عندما سمعت وقع خطوات فيرتر
على السلم ، وعرفت صوته على الفور وهو يسأل اهي في البيت . ودق
قلبها دقا عنيفا - ويكاد يكون ذلك لأول مرة - لاحساسها بوصوله . وكان

الوقت قد فات لانكار وجودها . وما ان دخل حتى هتفت به في ارتباك
لم تحسن اخفائه :

- اراك لم تبر بوعدك !

فأجابها :

- ولكنني لم اعد بشيء .

فقالت :

- ولكن كان ينبغي عليك ان تستجيب لطلبي ، لاجل خاطري علسى
الاقبل ، بل اني لاناشدك ذلك من اجلنا كلينا .

ولم تكد تعرف ماذا قالت او فعلت ، ولكنها ارسلت في طلب بعض
الاصدقاء ، ممن يحول وجودهم دون انفرادها بفيرتر . ووضع على النضد
بضعة كتب كان قد جاء بها معه ، ثم سألها عن كتب اخرى ، الى ان بدأت
تأمل في وصول اصدقائها بسرعة ، وان كانت في الوقت نفسه تمنى الا
يحضروا .

وفي لحظة من اللحظات تملكها القلق لبقاء الخادم في الحجرة المجاورة،
ثم لم تلبث ان عدلت عن رأيها . وكان فيرتر في هذه الاثناء يدرع الحجرة
في صبر نافذ . وتوجهت الى البيانو ، وقد قررت الا تنسحب ، ثم
استجمعت افكارها وجلست بهدوء بجانب فيرتر ، الذي كان قد اتخذ
مجلسه المعتاد فوق الاريكة .

وسألته :

- ألم تأت معك بشيء تقراه ؟

ولم يكن معه شيء ، فقالت :

- هناك في درجي ستجد ترجمتك لبعض اغاني الشاعر اوسيان .
وانا لم اقراها بعد ، لان الامل لم يزل يخامرني ان أسمعك تلقيا بنفسك،
واكن لم تسنح لي الفرصة لتحقيق هذه الامنية من قبل .
فابتسم ، وذهب لاحضار المخطوط ، وتناوله وقد عرته رجفة ، ثم
جلس ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وشرع في القراءة :

« يا نجم الليل الهابط ! ما احلى ضياءك في الغرب ! وانت ترفع راسك
غير المقصوص عن سحابتك ، وخطواتك فوق التل مهيبة . فماذا ترى في
السهل ؟ لقد هذات الرياح العاصفة وهممة السيل المنحدر تأتي من
بعيد ، والامواج الهادرة تتسلق الصخرة النائية . وذباب المساء خف على
اجنحته الواهنة ، وطنين مسارها يخيم على العقول . فماذا ترى ايها
الضوء البهي ؟ ولكن هأنت تبتسم وترحل ، والامواج تحلق بك في حبور،

كي تفسل شعرك الجميل . وداعا ايها الشعاع الصامت ! دع ضياء روح اوسيان يشرق !

«وانه ليشرق بكل عنفوانه ! واني لارى اصحابي الراحلين ، وقد تجمعوا فوق «لورا» ، كما كانوا يفعلون في سالف الايام . وها هو فنجان يأتي مثل عمود مائي من الضباب ! ومن حوله ابطاله ، وارى كذلك شعراء الغناء الصالحين : «أوليم» الاشيب الشعر ، و«رينو» المهيّب ! و«الين» الرخيم الصوت . واسمع شكوى «مينونا» الخافتة ! لكم تفرتم يا اصدقاء ، منذ ايام مآدبة «سلمى» ، حينما كنا ننافس ، مثل رياح الربيع التي تهب على امتداد التل ، وتحني تباعا اعواد العشب فينبعث منها صفير واهن !

«ها قد اقبلت «مينونا» بكل جمالها ، مطرقة دامعة العين . وشعرها يتطاير ببطء مع الانسام القليلة التي تهب من التل . وغمر الحزن ارواح الابطال عندما رفعت صوتها الرخيم . . . فترأى لاعينهم قبر «سلجار» ، والمقر المظلم لكولما ذات الصدر الابيض . وغدت «كولما» وحيدة فوق التل بكل صوتها الصادح ! ولقد وعد «سلجار» ان يأتي ، ولكن الليل خيم على كل ما يحيط بها . فاسمعوا صوت كولما عندما جلست وحيدة فوق التل ! «كولما : سجا الليل . وانا وحدي ، مهجورة فوق تل العواصف . وصوت الرياح يأتي من الجبال . والسيل يعول منحدرًا فوق الصخر . وما من كوخ ياويني من المطر : منبوذة انا فوق تل الرياح !

«اطلع يا قمر من وراء السحاب ! يا نجوم الليل اشرفي ! وقدني يا ضياء الى المكان الذي يستجم فيه حبيبي من القنص وحده ! ان قوسه بقربه غير مشدودة الوتر ، وكلايه تلهث من حوله ! ولكنني هنا لا بد ان اجلس وحدي عند صخور الجدول . والجدول والرياح لهما هدير من حولي . ولا اسمع صوت حبيبي ! لماذا تأخر «سلجار» ؟ لماذا اخلف زعيم التل وعده ؟ ها هي الصخرة ، وها هي الشجرة ، وها هو الجدول الهادر ! وانت قد وعدت ان تأتي مع هبوط الليل . آه . حبيبي «سلجار» ابن ذهب ؟ معك مستعدة انا ان اهرب من ابي . ومن اخي التياه . منذ زمن بعيد وسلالتنا اعداء ، ولكننا لسنا عدوين يا «سلجار» !

«كفي لحظة يا رياح عن الهبوب ! واصمت برهة يا جدول ! واتركا صوتي يرن فيسمعه كل ما حولي ، كي يسمعي حبيبي الجوال ! سلجار ! انها كولما تناديك . ها هي الشجرة والصخرة يا سلجار يا حبيبي . انسا

هنا ! لماذا تؤجل حضورك ؟ عجباً ! ها هو القمر الهاديء مقبل .
والغيضان قد صار لامعا في الوادي ، والصخور صارت رمادية فسي
المنحدر . ولست اراه على كتف التل ، وكلايه لا تسبقه مؤذنة باقترابه .
لا بد لي من الجلوس هنا وحدي !

«من اللذان يرفدان على العشب بجواري ؟ اهما حبيبي واخي ؟
حدثاني يا صاحبي ! ولكنهما لا يردان على كولما . حدثاني فأنا وحدي .
وروحى تعذبها المخاوف . آه ! انهما ميتان ! وسيفاهما احمران من
القتال . واهالك يا اخي ! لماذا قتلت يا اخي «سلجار» ؟ ولماذا يا «سلجار»
قتلت اخي ؟ عزيزين علي كنتما كليكما ! وماذا اقول اطراء لكما ؟ لقد كنت
انت الفد فوق التل من بين الالوف ! وكان هو مروعا في القتال ! حدثاني!
اسمعا صوتي ! اسمعاني يا فتني حبي ! ولكنهما صامتان ، صامتان الى
الابد ! وباردان ، باردان صدراهما الصلصاليين ! من صخرة التل ، ومن
قمة المنحدر الممول الرياح . تكلمي يا اشباح الموتى ! تكلمي ، فلن اخاف !
اين ذهبت لتستريحني ؟ وفي اي كهف من كهوف التل ساجد الراحلين ؟
ما من صوت واهن تحمله الريح ، وما من جواب نصف غارق فسي
العاصفة !

«اني اجلس غارقة في حزني : انتظر الصباح غارقة في دموعي !
اقيموا الضريح يا اصدقاء الفقيد ، ولا تغلقوه حتى تاتي كولما . حياتي
تتبدد كحلم . لماذا اتخلف انا ؟ هنا سابقى مع اصدقائي ، قرب الجدول
والصخرة . وعندما يخيم الليل على التل ، وتثور الرياح العالية الصوت ،
سيقف شبحي وسط الزوبعة ويندب موت اصدقائي . ولسوف يسمع
الصيد من سقيفته ، وبخاف . ولكنه سيحب صوتي ! لان صوتي سيكون
عذبا لاصدقائي : فقد كان اصدقاء كولما اعزاء عليها .

«هكذا كانت اغنيته يا «مينونا» ابنة «تورمان» التي يحمر وجهها
خجلا . ان دموعنا همت لاجل كولما ، وكانت ارواحنا حزينة ! وجيء
«اولين» بمزهره وعزف عليه اغنية «الين» . كان صوت الين رخيم ،
وروح رينو كانت لسانا من لهب ! ولكنهما كانا قد بقيا في البيت الضيق ،
وتوقف صوتهما في «سلمى» . وكان أولين قد عاد ذات يوم من الصيد قبل
سقوط البطلين . وسمع صوت نزاعهما فوق التل . كان غناؤهما حزينا .
كانا يكيان سقوط «مورار» ، اول البشر الفانين ! كانت روحه مثل روح
«فنجال» ، وسيفه مثل سيف «اسكار» ، ولكنه سقط ، وبكاه أبوه ،
وامتلأت عينا اخته بالدموع . عينا مينونا كانتا ملأنتين بالدموع ، اخت

«مورار» كانت . وانسحبت من اغنية «أولين» ، كما ينسحب القمر في الغرب عندما يتوقع الفيث ويخفي رأسه في سحابه . ولمست انا مزهر أولين . فتصاعدت اغنية الحزن !

«رينو : الريح والمطر قد انتھيا . والظھرة هادئة . والسحب فسي السماء متفرقة . وفوق التلال الخضر تسطع الشمس . ومن السوادي الصخري ينحدر جدول التل احمر اللون . ما احلى خريرك ايها الجدول ! ولكن الصوت الذي اسمعه احلى من خريرك . انه صوت «ألين» ، ابن الاغنية ، يندب الموتى ! ورأسه قد حنته السن ، وعيناه الدامعة حمراء . لماذا – يا «ألين» يا بن الاغنية – اراك وحدك على التل الصامت ؟ لماذا تشكو بصوت كآنين الريح في الغابة ، وكموجة على شاطئء موحش ؟

«ألين : دموعي يا «رينو» من اجل الموتى – وصوتي لاجل من رحلوا عن دنيانا . طويل انت فوق التل ، ووسيم انت بين ابناء الوادي . ولكنك سوف تسقط مثل مورار ، وسيعقد النادب على قبرك . ولن تعرفك التلال من بعد ، وقوسك ستكون ملقاة في بهوك غير مشدودة الوتر .

«لقد كنت سريعا يا مورار ! كالابل في الصحراء . ورهيبا كنت كشهاب من نار . وغضبك كان مثل العاصفة ، وسيفك في المعركة كالبرق في الحقل . وصوتك كان كالجدول عقب المطر ، وكالرعذ فوق التلال البعيدة . كثيرون سقطوا بقوة ذراعك ، واكثرهم نيران غضبك . ولكن عندما عدت من الحرب ، كم كان جبينك هادئا مسالما ! كان وجهك كالشمس بعد المطر ، وكالقمر في سكون الليل ، وهادئا كوجه البحيرة عندما تسكن الريح المدوية .

«ما اضيق مسكنك الان ! وما اشد ظلمة مثواك ! بثلاث خطوات تدور حول قبرك يا من كنت عظيما جدا من قبل ! واربعة احجار تغطي رءوسها الطحالب هي كل شاهد قبرك . وشجرة لا تكاد تنبت فيها ورقة ، وعشب طويل تصفر فيه الرياح ، هما كل ما يرشد عين الصياد الى قبر مورار الجبار ... مورار ! ما انكدك حقاً ، فلا ام لك تندبك ، ولا فتاة تذرف عليك دموع الحب . فمن ولدتك قد ماتت ، وابنة مورجسلان سقطت صريعة .

«ومن هذا المتكئ على عكازه ؟ من هذا الذي ابيض رأسه بحكم السن ، واحمرت عيناه من كثرة البكاء ، ويهتز مع كل خطوة يخطوها ؟ انه ابوك يا مورار ! الاب الذي لم ينجب سواك . لقد سمع بشهرتك في الحرب ،

«وكان «ايراث» بن «ادجال» ساخطا متبرما ، لان ارمار كان قد قتل اخاه ، فجاء متنكرا كأحد أبناء البحر ، وكان مركبه جميلا فوق الموج ، وخصلاته كانت بيضاء بفعل السن ، وكان جبينه الحاد هادئا صافيا ، وقال : «يا اجمل النساء وابنة ارمين المحبوبة ! ان صخرة بعيدة جدا في البحر تنبت فيها شجرة ، ثمرتها الحمراء تلمع من بعيد . وهناك ينتظر «ارمار» «دورا» ، وقد جئت كي احمل اليه حبيبته !.. وذهبت ، ونادت ارمار ، فلم يجبها احد الا ابن الصخر ، ارمار ! يا حبي . يا حبي ! لماذا تعذبني بالخوف ؟ اسمعني يا بن ارنارت . اسمعني ! دورا هي التي تناديك . وفر «ايراث» الخائن ضاحكا الى البر . ورفعت هي صوتها ، ونادت اخاها واباها ارندال ! ارمين ! لا احد ينقذك يا دورا ..

«وجاء صوتها عبر البحر . ونزل ابني ارندال من التل ، ومعه اسلاب الصيد ، وسهامه تصلصل الى جانبه ، وقوسه في يده ، وخمسة كلاب مرحة تقفو خطاه . ورأى «ايراث» المتوحش على الشاطئ ، فقبض عليه وشد وثاقه الى شجرة بلوط بكتاف من الجلد حول اطرافه ، فملأت ثأواهاته ادراج الرياح . وركب ارندال زورقه وشق به العباب كي يعود الى الارض بدورا ، وجاء ارمار في كل غضبه ، واطلق سهمه المريش ، فغاب السهم في قلبك يا ولدي ارندال ! وبدلا من «ايراث» الخائن كنت الضحية . وتوقف المجدف على الفور ، وارتطم الزورق بالصخر . ما اشد حزنك يا دورا حينما أريق على قدميك دم اخيك ؟ لقد تحطم القارب نصفين ، والقي ارمار بنفسه في اليم كي ينقل دوراه او يموت . وفجأة هبت ريح صرصر من التل في الامواج ، وغاص ارمار ولم يظهر له اثر .

«وكان صوت ابنتي يسمع من بعيد ، من وسط البحر المحفوف بالصخور ، باكية شاكية ، وتعالى صراخها متكررا لا ينقطع . ماذا كان ابوها عسيا ان يصنع ؟ لقد وقفت طول الليل على الشاطئ ، ورأيتها في ضوء القمر الواهن ، وظللت أسمع صرخاتها طول الليل ، وللريح هزيم عال ، والمطر ينهمر على التل بكل قوة . وقبل انبلاج الصبح ضعف صوتها ، ثم تلاشى مثل نسيم المساء وسط العشب والصخور . ماتت جزنا وغما ، وتركتك يا ارمين وحيدا . ذهبت في الحرب قوتي ، وراحت مفخرتي بين النساء . وعندما تثور العواطف ، وحينما ترفع ريح الشمال امواج البحر عاليا ، اجلس على الشاطئ ، وانظر الى الصخرة القتالة .

«وكثيرا ما ارى في ضوء القمر الجانح للمقيب اشباح ابني وابنتي ،
يسيران جنبا الى جنب منهمكين في حوار حزين» .



وتوقف فيتر عن القراءة حينما رأى الدموع تنهمر من عيني شارلوت،
وتخفف عن قلبها الذي اضناه الاسبى ، وألقى الكتاب من يده . وأمسك
بيدها ، وبكى بكاء مرا . واتكات شارلوت على يدها ، ودفنت وجهها في
منديلها ، فقد كان تأثيرهما كليهما بالغا اشد ، لانهما شعرا ان مصائب
أبطال «أوسيان» تصور قدرهما التعس . شعرا بهذا كلاهما ، فنضاعفت
دموعهما . وأسند فيتر جبينه الى ذراع شارلوت ، فارتجفت ، وأرادت
الخروج من البحيرة ، الا ان الاسبى والحزن والتعاطف الحميسم كانت
كالعبء الثقيل على روحها . وبعد قليل استعادت رباطة جأشها ، ورجت
فيرتر بصوت يقطعه النحيب ان يتركها وحدها . . وتوسلت اليه بكل
حرارة ان يستجيب لطلبها ، فارتجف ، وكاد قلبه ينشق ، ثم تناول
الكتاب مرة اخرى . واستأنف القراءة ، بصوت تقطعه الزفرات والانتحاب:
«لماذا توقظني ابها الربيع ؟ ان صوتك يناشدني هاتفا بي :
«اني أنعشك بالأنداء السماوية» . . . ولكن أوان فنائي قد اقترب ،
لان العاصفة التي ستدبل اوراقى وتسقطها باتت وشيكة القدوم . وغدا
سيأتي المسافر ، سيأتي ذلك الذي رأيته في نضارة الجمال ، وسوف
يبحث عني في أرجاء الميدان ، ولكنه لن يجديني» .



وأصابته هذه الكلمات بكل قوتها فيتر التعس ، فالتقى بنفسه وقد
فاض به اليأس على قدمي شارلوت ، وأمسك بيدها ، وضمهما بقوة الى

عينيه وعلى جبينه ، فخطر لها - لأول مرة - ما يدور بذهنه من اعتزام الموت ، فارتبكت حواسها ، وأمسكت بيديه ، وضمتها الى صدرها ، ومالت فوقه بأرق مشاعر الشفقة ، ولامس خدها الحار خده ، وغاب كل شيء عن ناظريهما ، فطوقها بذراعيه وضمها الى صدره ، وغمر شفثيها المرتجفتين بقبلات محمومة . وهتفت شارلوت بصوت واه وهي تشيح عنه:

- فيرتر ! فيرتر !

ويدها هائلة دفعته بعيدا عنها ، فخر على ركبتيه امامها ، فنهضت شارلوت ، وبحزن مشوش ، وبصوت اختلسط فيه الحب بالاستياء ، هتفت به :

- هذ هي المرة الاخيرة يا فيرتر ! لن تراني بعد الان !

نم رمقت عاشقها التمس بنظرة حنان اخيرة ، واندفعت الى الحجرة المجاورة وأغلقت الباب بالمفتاح . ومد فيرتر ذراعيه ، ولكنه لم يجسر على ان يستبقيهما ، وظل راكعا على الارض ، ورأسه ملقى على الاركة نصف ساعة ، الى ان سمع الصوت الذي رده الى صوابه . ودخلت الخادمة ، فنهض وراح يذرع الحجرة . ولما غادرت الخادمة الحجرة وتركته وحده أنجه الى باب شارلوت وقال بصوت خفيض :

- شارلوت ! شارلوت ! كلمة واحدة اخيرة ! كلمة وداع اخير ! فلم ترد عليه جوابا . فتوقف ، وأصغى ، وعاد يتوسل ، ولكن الصمت ظل سائدا ، وأخيرا انتزع نفسه من المكان صائحا :

- وداعا يا شارلوت ! وداعا الى الابد !

وظل فيرتر يجري حتى بوابة المدينة ، وكان الحراس يعرفونه فتركوه يمر في صمت . وكانت الليلة مظلمة وعاصفة . . . والمطر والنلج يتساقطان بفزارة . فوصل الى باب بيته في نحو الساعة الحادية عشرة . ولاحظ خادمه دخوله بدون قبعته ، ولكنه لم يفامر بكلمة . وعندما اخذ يساعده في خلع ملابسه ، لاحظ انها مبتلة . وقد وجدت قبعته بعد ذلك على قمة

صخرة تطل على الوادي . ومن غير المتصور كيف تسنى له ان ينسلق الى هذه القمة في مثل هذه الليلة الحالكة العاصفة من غير ان يفقد حياته .

واوى فيتر الى فراشه ونام الى ساعة متأخرة . ولا استدعى خادمه في الصباح ليأتيه بالقهوة وجده منهمكا في الكتابة . فقد كان يضيف الى رسالته لشارلوت بالسطور التي نوردها فيما يلي :

«للمرة الاخيرة افتح هاتين العينين . واأسفاه ! لن ترى هاتان العينان الشمس بعد الان ، وهي الان مغطاة بسحب كثيفة لا سبيل الى النفاذ منها . اجل ايها الطبيعة ! البسي ثياب الحساد ، فطفلك ، وصديقك ، وعاشقك يدنو من نهايته !

«ان هذه الفكرة يا شارلوت ليس هناك ما يضارعها ، ومع ذلك تبدو لي كحلم غامض عندما أكرر قولي : ان هذا يومي الاخير ! الاخير يا شارلوت ، وما من كلمة يمكن ان تعبر عن هذا الخاطر حق التعبير ! اليوم الاخير !

هنا اليوم اقف منتصبا بكل قوتي . وغدا سأكون ملقى على الارض هامدا باردا . اموت ! وما الموت ؟ كل ما يدور عنه في احاديثنا محض احلام . وقد رأيت اناسا كثيرين يموتون ، ولكن طبيعتنا الضعيفة كثيرة القيود بالغة الضيق ، فليس لدينا تصور واضح لبداية وجودنا ولا لنهايته . انا في هذه اللحظة ملك نفسي — او بالاحرى ملك يمينك انت يسا معبودتي ! — ولكن في اللحظة التي تليها سنفترق وتنقسم عرانا ، ربما الى الابد ! كلا يا شارلوت . كلا ! كيف يمكن لي ، وكيف يمكن لك ، ان نتلاشى وننعدم ؟ نحن موجودان . وما العدم ؟ ان هو الا كلمة . صوت لا معنى له ، لا يترك في العقل انطبعا . أترينني ميتا يا شارلوت ، مدفونا في الارض الباردة ، في لحد مظلم ضيق ؟ لقد كانت لي يوما ما صديقة هي كل شيء لي في اول الشباب . وماتت . وتبعت تابوتها ، ووقفت بجوار قبرها عندما انزلوا فيه التابوت . وعندما سمعت صرير الجبال حين فكت وجذبت ، وعندما ألقي اول رفش من التراب فوقه فكان لوقعه على اخشاباه صوت اجوف ، اخذ يتضاءل شيئا فشيئا الى ان غطاه التسراب

تماما ، عندئذ ألقيت بنفسي على الأرض ، وقد انصدع قلبي واعتصره الحزن والأسى ... ولكني لم أعرف ما الذي حدث ، ولا ما الذي سيحدث لي . الموت ! القبر ! كلمتان لا أفهم لهما معنى . اغفري لي . اغفري لي الأمس . فذلك اليوم كان ينبغي أن يكون آخر يوم في حياتي ! أيتها الملك ! لأول مرة في عمري شعرت بالنشوة تتقد في أعماق روحي . أنها تحب ! تحبني ! ولم تزل تحرق شفتي تلك النار المقدسة التي استقبلتها من شفتيك . دفقات جديدة من الجور تملسك روحي . سامحيني ! سامحيني !

«كنت أعرف أنني عزيز عليك . رأيت ذلك في نظرتك الأولى النافذة ، وعرفته من أول ضفطة من يدك . ولكن عندما كنت أغيب عنك ، وعندما كنت أرى البرت إلى جوارك ، كانت شكوكي ومخاوفي تعاودني .

«أتذكرين الأزهار التي أرسلتها إلي ، عندما أعجزك في ذلك الجمع المحتشد أن تكلميني أو تمددي إلي يدك ؟ لقد قضيت نصف تلك الليلة راكعا على ركبتني أمام تلك الأزهار ، أرى فيها براهين حبك ، بيد أن هذه الانطباعات تضاءلت بعد ذلك ، وانتهت إلى التلاشي .

«كل شيء إلى زوال وانقضاء ، ولكن الأبدية بأسرها لا يمكن أن تخمد الشعلة الحية التي أذكنتها بالأمس شفثاك ، والتي تتقد الآن في داخلي . أنها تحبني ! هاتان الذراعان قد طوقنا خصرها ، وهاتان الشفتان ارتجفتا فوق شفثيها . أنها لي ! أجل يا شارلوت ، أنت لي إلى الأبد !

«وما معنى قولهم أن البرت زوجك ؟ أنه قد يكون كذلك في هذا العالم ، وقد يكون اثما وخطيئة أن أحبك في هذا العالم وأصبو إلى انتزاعك من أحضانه . أجل ، أنها جريمة ، وأنا الآن أعاني عقوبتها ، ولكنني استمتعت بكل حلاوة اثمي ! لقد استنشقت بلسما أنعش روحي . أنت منذ هذه الساعة لي . أجل يا شارلوت . أنت لي ! وأنا الآن ذاهب قبلك . ذاهب إلى أبي وأبيك . وسأسكب أحزاننا أمامه ، وسوف يمنحني العزاء والراحة إلى أن تأتي أنت . وعندئذ سأطير للملاقاتك . وأطالب بك ، وأبقى بين أحضانك الأبدية ، في حضرة العلي القدير .

«لست حالما . ولا انا اهذي . فباقتراي من القبر تزداد تصوراتي ومداركي وضوحا . سنوجد ، وسيرى كل منا الآخر من جديد . وسنرى والدتك . ساراها ، وساعري امامها دخيلة قلبي . والدتك . امك . . التي هي صورة منك !»



٨

وفي نحو الساعة الحادية عشرة سأل فيرنر خادمه هل عاد البرت ، فأجابه : «نعم» ، لانه كان قد رآه مارا على صهوة جواده ، وعندئذ ارسل اليه فيرنر الكلمة التالية ، في ظرف غير مختوم (غير مغلق) .

«تكرم باقراضني غدارتيك لاعتزامي سفر ، وداعا» .



كانت شارلوت لم تنم الا قليلا في الليلة الماضية ، لان كل توجساتها تحققت على نحو لم يكن من الممكن ان تتوقعه او تتحاشاه . وكان دمها يغلي في عروقها ، والف احساس اليم يعتصر قلبها النقي . هل ما تشعر به في صدرها من اتقاد انما هو بتأثير ضمت فيرنر المحمومة ؟ ام هو الغضب لتجاسره على ذلك ؟ ام هي المقارنة المحزنة بين حالتها الراهنة وبين تلك الايام الخوالي التي سادتها البراءة والطمانينة والثقة بالنفس ؟ كيف يمكنها الان ان تدنو من زوجها ، وتعترف له بمشهد ليس من حقها ان تخفيه عنه ، ولكنها مع هذا تشعر بعدم رغبتها في الاعتراف به ؟ لقد لزم كل منهما الصمت طويلا بازاء الآخر ، فهل ينبغي ان تكون هي البادئة بهتك حجاب هذا الصمت بمثل هذا الاكتشاف غير المتوقع ؟ انها تخشى ان يكون مجرد انبائه بزيارة فيرنر سببا في تكديره واضطرابه ، وان يزداد

ضيقه وكرهه بصراحتها الكاملة . وتمنت ان تتسنى له رؤيتها على حقيقتها، وأن يحكم عليها بدون تحيز ولكن أهى حقاً متلهفة على ان يقرأ أعماق روحها وسريرتها ؟ ومن جهة أخرى ، أمستطيعه هي ان تخدع مخلوقا كانت جميع افكارها مكشوفة له على الدوام ، كالبلور الشفاف ، فلم يحدث قط ان اخفت عنه شعورا من مشاعرها ؟

كل هذه الخواطر اقلقتها وأهمتها . وظل عقلها يفكر في فيرتر الذي فقدته الان ، ولكنها لا تستطيع ان تحمل نفسها على التنازل عنه ، وتعلم في الوقت نفسه انه لن يبق له شيء سوى اليأس ، ان هو فقدتها الى الابد .

وتذكرت تلك المباحدة الغامضة التي رأت اخيرا بينها وبين البرت ، والتي لم تستطع قط ان تفهمها تمام الفهم ، ففقدت في نظرها الان شيئا اليما ، يتجاوز ألمه كل حد . والحريصون والطيبون الذين ترددوا - قبل الان - في شرح وتفسير ما بينهم من خلافات ، ولزموا الصمت حول اسباب سخطهم الوهمي ، كثيرا ما تتعقد الظروف بعد ذلك بحيث يفقدو التفاهم الكفيل بانقاذ الموقف مستحيلا . فلو ان الثقة الحميمة توثقت قبل الان فيما بينهم ، ولو كان الحب والتجلد الحنون قد اذكيا قلوبهم ووسعا من آفاقها ، فكان من المحتمل الا يكون اوان انقاذ صاحبنا قد فات .

ولكن ينبغي الانسى ظرفا بارز الاهمية . فمن رسائل فيرتر قصد يمكننا ان نلاحظ انه لم يتكلف قط اخفاء رغبته المتلهفة على مغادرة هذا العالم . وكثيرا ما ناقش هذا الموضوع مع البرت . بل لم يكن هذا الموضوع النادر التداول في احاديث البرت مع شارلوت . وكان البرت مناهضا تمام المناهضة لمجرد التفكير في مثل هذا العمل ، وكان يحتد في التعبير عن ذلك بصورة غير معهودة فمه . بل انه اكثر من مرة المح الى فيرتر بانه لا يؤمن بجديّة تهديداته ، ولم يكتف بالسخرية منها ، بل وجعل شارلوت ايضا تشاركه الرأي بعدم تصديقها . ولذا كان قلبها مطمئنا عندما يتراءى لها هذا الموضوع على شيء من الجدية ، وان كانت لم تذكر لزوجها قط تلك المخاوف والتوجسات التي كانت تخامرها احيانا .

واستقبلت شارلوت البرت عند عودته بتحرج وضيق لم تحسسن اخفاءهما . وهو ايضا كان منحرف المزاج ، لان صفقة العمل لم تتم ،

واكتشف أن ذلك الموظف الذي كان عليه أن يتعامل معه شخص عنيد ضيق الأفق . وهكذا اصطلحت اشياء كثيرة على اثاره حنقه .

وسألها أحدث شيء اثناء غيابه ، فبادرت شارلوت الى القول ان فيرتر حضر في الليلة السابقة . وعندئذ سألها عن خطابه ، فقالت له ان عددا منها قد وضع في حجرة مكتبه ، وعندئذ غادر الحجرة تاركا شارلوت وحدها .

والقى حضور الشخص الذي تحبه وتبجله انطبعا جديدا على قلبها ، فهذا تذكرها واستحضارها لكرمه وحنانه ومودته من اضطرابها ، واحست دافعا خفيا يدعوها ان تتبعه ، فحملت اسفال ابرتها وتوجهت الى مكتبه ، على نحو ما كان من عادتها ان تفعل في كثير من الاحيان . ووجدته مشغولا بفض خطابه وقراءتها . وبدا لها ان بعض تلك الرسائل لم يكن مستحبا ، فالتفت عليه بضمة اسئلة ، اجابها عنها بايجاز ، ثم جلس ليكتب .

ومرت عدة ساعات على هذه الوتيرة ، فزادت مشاعر شارلوت انقباضا . واحست مبلغ صعوبة الافضاء الى زوجها - مهما كانت الظروف - بالعبء الذي يثقل قلبها . وراح اكتئابها يتعاظم لحظة بعد لحظة ، كلما امعنت في محاولة اخفاء حزنها ودموعها .

وسبب لها حضور خادم فيرتر اشد الضيق . وسلم الخادم البرت رسالة صغيرة ، اعطاها البرت ببرود لزوجته ، وهو يقول لها :

— اعطه الغدارتين .

ثم التفت الى الخادم واردف قائلا :

— وأتمنى له سفرا سعيدا .

فوقعت هذه الكلمات على شارلوت وقع الصاعقة ، فنهضت من مقعدها نصف مغشي عليها ، غير شاعرة بما تصنع . ومشت بطريقته

آلية الى الحائط ، وانزلت الغدارتين مرتجفة ، ونفضت عنها التراب ببطء ، وكانت حرية ان تبطئ اكثر من ذلك لولا ان البرت تعجلها بنظرة تدل على نفاد الصبر ، وعندئذ سلمت السلاح الى الخادم ، من غير ان تواتيها المقدرة على التلفظ بكلمة . وما ان خرج الخادم حتى طوت اشغالها ، واوت فورا الى حجرتها ، وقد تكاثرت اعنف الهواجس ونذر الشر على قلبها . فقد توقعت كارثة فظيعة . واوشكت في لحظة من اللحظات ان تذهب الى زوجها ، وتلقي بنفسها عند قدميه وتخبره بكل ما حدث في الليلة السابقة ، معترفة بخطئها ، وتعرفه بتوجساتها ، ثم رأت ان مثل هذه الخطوة عديمة الجدوى ، لانها لن تفلح في اقناع البرت بزيارة فيرتر .

واعدت مائدة الغداء ، وكانت هناك صديقة رقيقة اقنعتها شارلوت بالبقاء كي تدب الحياة في حديث المائدة الذي ظل مع هذا متعثرا ، الى ان تنوسيت احداث الصباح .



ولما اتى الخادم فيرتر بالغدارتين ، تلقاهما بحبور شديد لما عرف ان شارلوت هي التي قدمتهما اليه بيدها . وأكل شيئا من الخبز ، وشرب شيئا من النبيذ ، وصرف خادمه ليتناول غداءه وجلس ليكتب ما نوره فيما يلي :

«لقد كانتا في يديك . وأنت التي نفضت الفبار عنهما . لهذا اقبلهما الف قبلة ، لانك لمستهما . اجل ان السماء تؤيد ما اعتزمته . وها انت يا شارلوت تقدمين لي هذه الوسائل المميّنة بنفسك . لقد كانت امنيتي ان اتلقى منيتي من يديك ، وها هي رغبتي قد تحققت . لقد سألت خادمي ، فقال انك كنت ترتجفين وأنت تقدمين لـ الغدارتين ، ولكنك لم تذكرتي كلمة توديع واحدة لي . يا لي من تعس . الا كلمة وداع واحدة ؟ كيف تسنى لك ان تغلقي قلبك دوني في تلك اللحظة التي ستجعلك لي السي

الإبد ؟ اواه يا شارلوت ؟ ان العصور لا يمكنها ان تمحو هذا الانطباع ...
انطباع انك لا يمكن ان تكريه الرجل الذي يحبك بجنون !» .



وبعد الغداء استدعى خادمه وكلفه بالانتهاء من حزم الامتعة ، واحرق
اوراقا كثيرة ، ثم خرج للوفاء ببعض الديون الصغيرة ، وسرعان ما عاد بعد
ذلك الى البيت ، ليخرج ثانية برغم المطر ، فتمشى برهة في حديقة
الكونت ، ثم خرج وجعل يتجول في الخلاء . وقبل المساء عاد السى
الى البيت ، واستأنف الكتابة .

«فلهم ! لقد رايت الجبال والقباب والسماء للمرة الاخيرة . وداعا !
وانت يا امي العزيزة ، سامحيني ! عزها يا فلهم ، بارك الله فيك ! لقد
سويت جميع شئوني ! وداعا ! وسنلتقي مرة اخرى ، ونكون اسعد من
اي وقت مضى» .

«لقد آذيتك كثيرا يا البرت ، ولكنك ستغفر لي . لقد كدرت سلام
بيتك ، وبدرت عدم الثقة فيما بينكما . وداعا ! سأنهي كل هذه
التعاسة . وليت موتي يسعدكما ! البرت ! البرت ! اسعد هذا الملاك ،
ولتحل عليك بركة السماء !» .

وقضى بقية المساء في ترتيب اوراقه ، ومزق واحرق الكثير ، وختم
بالشمع اوراقا اخرى ، ووجهها الى فلهم . وكانت فيها خواطر واقوال
مأثورة . وقد قرأت بعضها بامعان . وفي الساعة العاشرة امر باشعال
ناره ، وباحضار زجاجة نبيذ . ثم صرف خادمه ، وكانت حجراته
وحجرات سائر الاسرة في ناحية اخرى من الدار . واستلقى الخادم
بنياحه كي يكون مناهبا بأسرع ما يمكن للانطلاق في الرحلة المزمعة عند

طلوع النهار ، فقد انباه سيده ان خيول البريد ستكون امام الباب قبل السادسة .

«ها قد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ! وكل شيء ساكن فيما حولي، ونفسي هادئة . اشكرك يا ربي لانك منحني القوة والشجاعة في هذه اللحظات الاخيرة ! هأنا اقرب من النافذة يا اعز الاصدقاء ، ومن خلال السحب التي تسوقها الرياح سوف اريها في هذه اللحظة اري النجوم التي تضيء سماوات الابدية . كلا ! لن تسقطي ايتها الاجرام السماوية ، لان يد القادر العلي تسندك وتسندني ! وقد نظرت للمرة الاخيرة السى مجموعة الدب الاكبر ، فهي نجمي المفضل ، فعندما ودعتك ليلا يا شارلوت ، وأبعدت خطواتي عن بابك كان هذا النجم ساطعا فوقني ! ولكن نظرت اليه في بعض الاحيان بانتشاء وحبور ! ولكم ناشدته بيديين مرفوعتين الى السماء ان يشهد على هنائي !.. ولكن اين هو الشيء الذي لا يذكرني بصورتك يا شارلوت ؟ الست محيطة بي من جميع الجهات ؟ او لم أكتنز - كالطفل - كل صغيرة وكبيرة اكتسبت في نظري القداسة بلمسك اياها ؟

«لقد توسلت الى ابيك ان يحمي رناتي . ونمة في ركن فناء الكنيسة المطل على الحقول شجرتنا زيزفون ... هناك يا شارلوت اود ان ادفن . ويستطيع ابوك بلا شك ان ييسر ذلك لصديقه . فالتمسى منه هذا . ولكن لعل اتقياء المسيحيين لا يودون ان توارى أجسادهم التراب قرب منكرد مسكين مثلي . فاذا كان الامر كذلك ابعدونني الى واد مهجور ، او قرب الطريق الخلوي العام ، حيث يمر الكاهن واللاوي بقبري مستعيزين ... اما السامري فيدرف على مصري دمعة .

«انظري يا شارلوت . لست ارتجف وانا اتناول الكأس الباردة المميتة ، التي منها سأشرب جرعة الموت . يدك هي التي تقدمها لي . لهذا لست أرتعد . لقد ختم الان كل شيء ، وآمال عمري وأمانيه قد تحققت . وببد باردة غير محجمة أطرق ابواب الموت !

«ما احفظاني بسعادة الموت لاجلك ! لكم كنت خليقا ان اسر بتضحية

نفسى لك يا شارلوت ! وليتني أعيد السلام والحبور الى قلبك ، اذن بكل العزم وبكل السرور كنت القى مصري ! ولكن القلة المختارين هم الذين يسفكون دمهم في سبيل اصدقائهم ، ويكتب لهم ان يزيدوا بموتهم سعادة محبوبهم الف ضعف .

«واريد يا شارلوت ان ادفن في الثوب الذي ارتديه الان ، فقد اكتسب قداسة من لمسك اياه . . وقد طلبت تلك الخطوة ايضا من ابيك، ان روحي تحلق فوق لحدي . ولا اريد ان يفتش احد جيوبى . . وهناك تلك الانشودة من الشريط الوردي الذي كنت ترتدينه فوق صدرك اول مرة رايتك فيها ، والاطفال من حولك .- قبلهم الف مرة نيابة عني ، وابلغيهم مصر صديقهم المنكود ! يخيل الي اني اراهم يلعبون من حولي . يا للاطفال الاعزاء ! لكم تعلقت بك بكل حرارة يا شارلوت منذ الساعة الاولى التي رايتك فيها . وكم استحال علي ان افارقك ! تلك الانشودة يجب ان تدفن معي ، فقد كانت هديتك الي في يوم عيد ميلادي . لكم يبدو كل شيء مختلطا ! وما كان يخطر ببالي اني سأسلك هذا الطريق ! ولكن ليحل عليك السلام يا شارلوت !

«الغدارتان محشوتان . والساعة تدق الثانية عشرة ! وانا اقول آمين . شارلوت . شارلوت ! وداعا . وداعا» .

ورأى احد الجيران الومضة ، وسمع دوي الغدارة ، ولكن لم يلبث السكون ان ساد ، فطرده ما رأى وما سمع من ذهنه .

وفي الصباح ، في الساعة السادسة ، دخل الخادم حجرة فيرتس وفي يده شمعة ، فالتفت سيده ممددا على الارض ، غارقا في دمه ، والغدارتان الى جانبه . وناداه واحتواه بين ذراعيه ، ولكنه لم يفسر بجواب . ولم تكن الحياة قد فارقت بعد ، فأسرع الخادم الى جراح ، ثم ذهب لاحضار البرت . وسمعت شارلوت صوت الجرس ، فاستولت عليها قشعريرة باردة ، وأيقظت زوجها ، ونهض الاثنان وأفضى الخادم الفارق في دمعه اليهما بالنبا ، فوقع شارلوت مغشيا عليها تحت أقدام البرت .

ولما اتى الجراح الى فيتر العائر الحظ ، وجده لم يزل راقدًا على الارض ، وقلبه ينبض . بيد ان اطرافه كانت باردة . وكانت الرصاصة قد دخلت من الجبهة فوق العين اليمنى ، واخترقت الجمجمة . وكان شريان في ذراعه اليسرى مفتوحا والدم يسيل منه ، ولم تزل أنفاسه تتردد .

ولما كان هناك دم يتساقط من فوق الكرسي ، فلا بد انه اقدم على فعلته الطائشة وهو جالس الى مكتبه ، ثم سقط بعد ذلك على الارض .. حيث وجد ممددا على ظهره قرب النافذة ، بملابسه الكاملة .

وعلى الفور ساد الاضطراب الدار ، والجيرة ، والمدينة كلها ، ووصل البرت . وكانوا قد سجدوا فيتر في فراشه ، وربطوا دماغه بالضمادات، وعلت وجهه صفرة الموت . واطرافه لم يكن بها حراك ، ولكنه لم يزل يتنفس ، بقوة احيانا ، وفي وهن احيانا اخرى ... وصار موته متوقعا في اي لحظة .

وكان قد شرب كوبا واحدا من النبيذ . وزجاجته المفتوحة فوق المكتبة .

ولن اقول شيئا عن نكد البرت او عن حزن شارلوت .

واسرع ناظر الزراعة الشيخ الى الدار فور سماعه بالنبا ، وعانق صديقه المحتضر وسط فيض من الدموع ، وسرعان ما حضر الكبار من اولاده راجلين . وفي حزن لا يوصف جثوا على ركبهم بجوار سريره ، وقبلوا يديه ووجهه . وكان اكبرهم آثرهم عنده ، فتعلق به الى ان فاضت روحه ، ولم يبعدوه عنه بعد ذلك الا قسرا .

وفي الساعة الثانية عشرة لفظ فيتر أنفاسه الاخيرة . وكان لحضور ناظر الزراعة والاحتياطات التي اتخذها اثرهما في منع الازعاج . وتحت جنح الليل ، في الساعة الحادية عشرة ، اجري مواراة الجثمان في المكان الذي اختاره فيتر لنفسه .

وتبع ناظر الزراعة وأولاده الجثمان إلى القبر . ولم يتمكن البرت من مرافقتهم ، فقد كانت حياة شارلوت ميئوسا منها . وقد حمل بعض الفلاحين الجثة ، ولم يحضر الدفن قسيس .

تمت

المقصود من العالمية للجميع

اسكندر ديماس

مارغريت ميتشل

جون شتاينبك

سومرست موم

مارسيل موريت

حبورج سيمون

بيرك باك

سير والتر سكوت

شارل ديكنز

فيكتور هيغو

يوهان جوته

ارنست همنغواي

اجاتا كريستي

جيمس هيلتون

الفرسان الثلاثة "مزيّن"

الكونت دي مونت كريستو

زلقب مع الرّيح "مزيّن"

رجال ونساء .. وهبت

ليلة غرام

كنت هاسوساً

غادة الكا ماليا

جريمة في الريفييرا

الأرض الطيبة

عذراء المعبد

اليفانير "أول الفارس الأسود"

رافير كوربي فليد

أحمد بن نور دام

الأم قمر

العجوز والجمد

سوف تشرق الشمس

الكأس الذهبية

عدالة السماء

القاتل الخفي

الرجل الفاضل

غادة طيبة

عذراء وثلاثة رجال